إنما الناس سطور

كتبت

في قلب الله

الحياة لا تقاس بطولها

مزمور ٩٠: ١٢

لمن قرعت أجراس الكنيسة اليوم؟
وما لرنينها يتقاطر حزنا وألما؟
ولمَ اجتمع رجالات ونساء محافظتنا اليوم هنا؟
وما بالهم ممتلئين صمتا ورعبا؟
ألعلهم سمعوا بموت فقيدتنا؟
ألعلهم أحسوا بفقدان عزيزتنا
فأتوا لأحياء ذكراها الغالية العطرة؟

إن خطبنا بوفاة أختنا أم رامي لفادح وعظيم...
وإن مصابنا بفقدها لجلل كبير...
فلقد امتدت يد المنون إليها وغدرت بها، فخطفت منا أماً رؤوماً
غافلتنا رحى الدهر ودارت علينا، فسرقت منا أختا حنوناً
هبت علينا رياح الموت فاقتلعت من وسطنا عضواً فاعلا في المجتمع
وعلما لوثريا مخلصا وأصيلاً.

أجل أيها الأحباء،
في هذا الأسبوع المنصرم رأينا الموت على بشاعته،
اختبرناه على حقيقته.... رأيناه يغافلنا، يخطف منا
فقيدتنا... رأيناه يحصد سنبلة وهي بعد في قمة عطائها....

ونستيقظ اليوم وقد مرت أيام خمسة ولا نكاد نصدق أعيننا
أحقا قد رحلت عنا نورما؟ أحقا قد تركتنا؟
أحقا غابت عن أبصارنا وكأنها حلم ليس إلا!

في الأيام الأخيرة سمعت الكثيرين يقولون: «الحياة فش عليها أسف»
لذلك شبهها الكتاب المقدس بالعشب الأخضر الذي يكسو

---

* عظة ألقيت في جنازة المرحومة نورما عودة بتاريخ ١٦\١٠\٢٠٠١.

جبال البرية القاحلة شرقي بيت ساحور، ذلك البساط الأخضر
الجميل، ذلك المنظر الرائع الذي ما أن يظهر في شباط حتى يجف في أذار.....
إن حياتنا حقا "كلمح البصر"، سريعة وفانية
ولكنها لهذا السبب بعينه لمهمة وغالية....
إنها حقا قصيرة ولكنها لذلك قيمة وثمينة....

حقا لقد توفيت الفقيدة وهي بعد في قمة عطائها....
ولكن حياة الإنسان لا تقاس أبدا بطول سنينها....
إنما تقاس بعمق دقائقها....

الإيمان المسيحي أيها الأحباء، إنما يسلط ضوءًا جديدًا
على حياتنا...
فلقد عاش يسوع مخلصنا ثلاثا وثلاثين سنة ليس إلا...
قضى وهو بعد في ريعان شبابه.... ولكن السنين هذه على قلتها
كانت كافية لتغمر المسكونة برمتها بالنعمة والرحمة والضياء....

هناك أناس يعيشون طويلا ويعمرون دهرًا،
ولكنهم يحولون الحياة إلى جحيم لا يطاق....
وهناك أناس يحيون لفترة قصيرة، ولكنهم
يحولون الأرض إلى سماء... والجحيم إلى نعيم...
ويفجرون في الأرض القاحلة ينابيع مياه عذبة....
ويزرعون بالإيمان فردوساً وبساتين....

وإننا إذ نحيي في هذا اليوم ذكرى فقيدتنا الراحلة أم رامي...
ونواجه حقيقة الموت،
لا نفعل ذلك لشيء إلا لنفهم لغز الحياة....
فالحياة لا يسبر غورها أحد إلا من زاوية الموت....
تماما كالرواية، لا تفهم إلا من خاتمتها ومن نهايتها....

لذلك صرخ صاحب المزمور قائلا (مزمور ٩٠: ١٢)
علمنا أن نحصي أيامنا، فنؤتى قلبا حكيما....
أو كما قال بولس الرسول...
أن نفتدي الوقت على قصره، لأن الأيام شريرة...

لذلك لا يسعنا في هذا الصباح إلا أن نشكر الله على
حياة الفقيدة الراحلة.... على عطائها... على إيمانها....
وعلى شهادتها، التي وإن ماتت فما زالت حية وبليغة....
لقد افتداها مخلصنا بآلامه، فافتدت بدورها الوقت...
أعطت كما أعطيت، كيلا فائضا ملبداً ومهزوزا.....
أعطت ولم تبخل، شاكرة بذلك الله على عطيته التي لا يعبر عنها....
وإذ نحيي هذه الصلاة التذكارية... إنما نفعل ذلك لا لكي نتذكر
نحن من فقدنا فحسب، بل إنما نفعل ذلك كي نتغير نحن
الأحياء الباقين.....

فالصلاة التذكارية تريد أن تصقلنا نحن المؤمنين....
تريد أن تغيرنا فنكتشف الحياة من خلالها على حقيقتها.....
ونجد الرحيق وسط أشواكها....
ولنبصر نور القيامة يشع علينا عبر آلامها...

الصلاة التذكارية تريد أن تجعل منا رسل بعث وقيامة
في عالم أصبح فيه الموت يحيط بنا من كل حدب وصوب...

الصلاة هذه تجعل منا رسل رجاء في عالم راح يتخبط
في يأس وقنوط....
والذكرى هذه إنما ترينا نور القيامة، نحن الذين
نمر في نفق مظلم لا نرى نهايته.....

إن إيماننا الراسخ هو أن اختنا أم رامي،
قد انتقلت من الموت إلى الحياة....
ومن النفق المظلم إلى الضياء.....
ومن الإيمان إلى العيان.....
لقد غابت عنا ولكنها ستبقى حية في قلب الله....
وستبقى ذكراها حية في قلوبنا .

آمين.

أمرأة فاضلة من يجدها
لأن ثمنها يفوق اللآلئ

أختنا الآنسة نهيل (والآنسة نبيهة)،
أيها الأحباء في الرب،

لمن قرعت أجراس الكنيسة اليوم؟ وما لرنينها يتقاطر حزنا والما؟
ولما اجتمع الحاضرون في هذا المكان؟ وما بهم ممتلئين صمتا ووجعا؟
ألعلهم سمعوا بموت فقيدتنا؟
ألعلهم أحسوا بفقدان عزيزتنا، فأتوا لوداعها الوداع الأخير؟

إن خطبنا بوفاة أختنا لفادح وعظيم
وإن مصابنا بفقدانها لعميق وكبير...
فلقد امتدت يد المنون وغدرت بها فخطفت منا مربية فاضلة...
غافلتنا رحى الدهر ودارت علينا وسرقت منا مؤمنة ورعة...
هبت علينا رياح الموت فاقتلعت من كنيستنا ابنة مخلصة.

أجل تركتنا «نعمة» في زمن أضحت فيه التربية سلعة رخيصة،
غادرتنا في وقت أمسى فيه الإيمان نادرًا وثمينا،
ودعتنا في عصر أمسى الصلاح فيه يتيما ووحيدا،
تركتنا في زمن صعب ووقت عصيب فافتقدناها
إذ في الليلة الظلماء يفتقد البدر.

ولدت فقيدتنا في مدينة بيت لحم في سنة ١٩٠٧،
وشبت في بيت جبرانٍ اللوثري الأصيل، حيث رضعت الإيمان زاداً،
وتسلحت بالعلم نوراً وتزينت بالأخلاق تاجًا مرصعاً.
ولكن ما أن فتحت أختنا الراحلة أعينها على الدنيا إلا وأدركت

---

* عظة ألقيت في جنازة المرحومة نعمة جبران جبرائيل بتاريخ ١٩٩١/١/٢/٢.

بؤس عالمنا وشقائه... فلقد رأت الاحتلال التركي وقد
دمر وطننا وسلبه خيراته، وأبصرت الأمراض والمجاعات
التي راحت تعصف بشعبنا وتقتل أبناءه، بل ورأت بأم عينيها
ويلات الحرب العالمية الأولى فأحست بوحشية الإنسان وقساوته.

هذه مجتمعة جعلتها تفكر في كيفية النهوض بالإنسان من انحطاطه
وفي السبيل الصحيح لتطوير العالم وبنائه.
واختارت الفقيدة العلم سلاحا، فدرست أول ما درست في مدرسة طاليثا قومي
ومن ثم في مدرسة المسز تومسون الأمريكية، ولم تكتف بهذا القدر
من العلم بل سرعان ما التحقت بدار المعلمات حيث حصلت منها
على شهادة التعليم العالي لتصير بذلك من طلائع المعلمات الفلسطينيات
كانت الفقيدة عالمة جليلة، أتقنت اللغة الإنكليزية كما أتقنت
لغتها العربية، بل أذكر أنها قالت لي في إحدى المرات:
أنها كثيراً ما تستمتع بالعظات البليغة وأن ما من شيء يعكر صفوها
سوى الأخطاء القواعدية والنحوية.
واختارت الفقيدة التربية منهجاً...

فلقد أدركت فقيدتنا أن التربية السليمة سواء في البيت أم في المدرسة
هي الأساس المتين الوحيد لبناء عالم جديد وجميل.
وآمنت الراحلة بأن للمرأة دورا رياديا في تربية الأبناء والأجيال
لذلك اهتمت أختنا نعمة بتأهيل المعلمات والأمهات كي يأخذن
دورهن في تربية النشئ وتثقيفه. وكان هذا هو هدفها الصريح المعلن
أثناء عملها في كلية المعلمات كما في جمعية الشابات المسيحية.

واختارت الفقيدة الإيمان رفيقا. وكأنها أدركت أن العلم والتربية
وحدهما ناقصان إن لم يصاحبهما الإيمان.
إذ قد يسئ المرء استخدام العلم لإغراض قد تهدم بدل أن تبني،
وتقتل بدل أن تحيي، لذا وجب على الإنسان أن يرفع بيساره
منار العلم وبيمينه مشعل الإيمان،
كان إيمان فقيدتنا قويا راسخا. فرغم كثرة التجارب والأحزان
والأوجاع لم تفقد أختنا يوما إيمانها بربها وتمسكها به،
بل ظلت مخلصة له في السراء كما في الضراء.
كان إيمانها صلبا مؤسساً على يسوع المسيح صخر الدهور

فلم تستطع أمواج الشك أو القلق من زعزعته،
بل تحطمت هذه الأمواج عند الصليب وتكسرت أمام الجلجثة.

لم يكن الإيمان لفقيدتنا نظرية أو معادلة حسابية، بل كان حياة يومية،
حياة في خدمة الله والإنسان، كان إيماناً جاداً، عاملاً، فعالاً ومثمراً.

اختارت الفقيدة يسوع الناصري رفيقاً في الحياة ومعيناً في الممات،
فلم تأل يوماً جهداً عن مفاجأته في الصلاة، والتزود
بكلمته ليلاً ونهاراً وخدمة كنيسته صبحاً ومساءً.
وكان لسان حالها يردد دوماً كلمات ترنيمتها المفضلة يقول:

يا ترى أي صديق	مثل فادينا الحبيب
يحمل الآثام عنا	وكذا الهم المذيب
يا لإنعام تسامى	من لدن رب النجاة
إننا نلقي عليه	كل حمل بالصلاة

إمرأة كهذه فاضلة من يجدها؟ لأن ثمنها يفوق اللآلئ...
هذه الأخت الراحلة وجدها يسوع الناصري،
فضمها إلى رعيته وجندها في صفوفه وها هو اليوم يخطفها إلى ربوعه.
فلا تخافي أيتها الأخت الراحلة...
لا ترهبي ... إذ لن تدخلي عالما مجهولا لديك، بل ستعودين
إلى موطنك السماوي، سترجعين إلى وطنك الأصلي،
ستدخلين بيت أبيك وستسكنين مع المسيح مخلصك،
هناك ستكونين إلى الأبد في قلب الله،
ولكنك ستظلين إلى الأبد في قلوبنا.

ومن على هذا المنبر أتقدم إلى أختنا الآنسة نهيل وإلى جميع أقارب الفقيدة ومعارفها بأحر التعازي سائلاً الله العلي القدير أن يعزيكم بعزاء القيامة ويلهمكم الصبر والسلوان.

إن الحياة جهاد

أيوب ١٤: ١-٦

أختنا السيدة جانيت،
حضرات السيدات والسادة وأنسباء الفقيدة،
أيتها الطائفة الحبيبة،

الإنسان مولود المرأة قليل الأيام كثير الشقاء...
بهذه الكلمات لخص أيوب النبي حياته ومماته.

الإنسان...ذلك المخلوق الذي ناطح السحاب وغزا الفضاء وفجر الذرة...
الإنسان..ذلك المخلوق الذي ركب البحار وغاص في الأعماق...
ذاك الذي سيطر على الأرض وعلى كل المخلوقات.

هذا الإنسان بعينه هو مولود المرأة قليل الأيام كثير الشقاء...
ليست هذه كلمات طفل ما زال يرى العالم بعيني البراءة والطفولة...
ولا هي كلمات شاب ما زال يعيش نشوة الرجولة والقوة...
بل هي كلمات شيخ خاض غمار الحياة وغاص في أعماقها فاكتشف جوهرها..
اكتشف بأن الإنسان حقا لقليل الأيام وكثير التعب والشقاء...
فأيام الإنسان هي سبعون سنة وإن كانت مع القوة فثمانون سنة
وأفخر هذه السنين تعب وبلية.

هذه هي حياة الإنسان... تبدأ في المهد ببكاء وصراخ
وتنتهي على فراش المرض بوجع وحشرجة وصياح...
وما بين هذا وذاك، ما بين الطفولة والشيخوخة...
بين الولادة والموت، فإن حياة الإنسان لصراع في صراع...

أجل أيها الأحباء،
إن الحياة جهاد والسير فيها عسير،

* عظة ألقيت في جنازة المرحومة أم زوزو أندوني.

إنها أشبه ما تكون بدرب مليء بالأشواك والعقبات
وجب على المرء اجتيازه والتغلب عليه إن أراد الوصول إلى مراده.
هذا هو جوهر الحياة، يكتشفه البعض فتغتم نفوسهم
وتهن عزائمهم وتخور قواهم... ويراه الآخرون فما
يزيدهم ذلك إلا تصبراً وعزيمة وإصراراً.

لقد كانت فقيدتنا **أم زوزو** من هذا النوع من الناس الذين
اختبروا قسوة الحياة فلم تزدد إلا إصرارا على الجهاد
والنصر والغلبة.

ولدت فقيدتنا في الرابع عشر من كانون الثاني من عام ألف
وتسعمائة وثلاثين في مدينة اللد.
عاشت طفولتها إبان الحرب العالمية الثانية وما أن وضعت
هذه الحرب أوزارها إلا واقترنت فقيدتنا بزوجها السيد أندوني
الحصري، وكأنها أرادت بذلك أن تثبت للملأ بأن الحياة لأ قوى
من الموت وبأن المحبة لأطول عمراً من الحروب.

ولكن ما هي إلا سنين قليلة نشبت بعدها الحرب العربية الإسرائيلية
وحدثت النكبة فشرد الأهل وأصرت عائلة السيد أندوني الحصري
على ترك مسقط رأسها فلجأت إلى بيت لحم ليبدأ مشورهما من جديد
مؤمنين بأن الحياة جهاد وصراع وتحد، وأن على المرء ألا ييأس
بل أن يبقى متمسكا بالجد وبالأمل.

وانضمت عائلة السيد أندوني إلى الطائفة اللوثرية في بيت لحم، وانخرط
جميع أفرادها وخاصة فقيدتنا أم زوزو في عمل الكنيسة هنا. فراحت
تعقد اجتماعات السيدات وتقدم من وقتها وجهدها وفنها
لتنمي العمل في الكنيسة... وانتخبت عمدة في هذه الكنيسة
فراحت ترعى شؤونها وتدبر حالها مظهرة للجميع
أن حياة المؤمن كثيراً ما تكون صعبة ولكن بالإيمان وبالعمل
الجاد المخلص يستطيع الإنسان أن يتغلب على المصاعب.

قال لي أحدهم: لقد علمتنا الفقيدة أم زوزو أن بإمكان المؤمن أن
يقتدي بربه يسوع في حياته ويعمل شيئا من اللاشيء شيئا ذا قيمة.

وفي عام ١٩٧٧، خسرت هذه الطائفة عائلة الحصري
بعد أن هاجر أفرادها إلى سان فرانسسكو ليبدأوا هناك
مشواراً جديدا. هناك وفي الغربة ألم مرض صعب
بفقيدتنا أم زوزو وكان الأمل بنجاتها ضئيلاً،
وأشار الأطباء لها أنها لن تعمر لأكثر من
بضعة شهور...
ولكنّ فقيدتنا أبت أن تستسلم للموت، بل تمسكت بالحياة
فراحت تصارع المرض والمنون بإرادة حديدية وبإيمان
عميق فعاشت سنتين كاملتين لتسلم روحها في يدي مخلصها
في الحادي والعشرين من هذا الشهر.

لقد جاهدت فقيدتنا الجهاد الحسن، فواصلت السعي
وحفظت الإيمان وأخيرا أعطي لها أن تدخل إلى راحة
خالقها غالبة منتصرة. ..
وكأنها سارت مع مخلصها درب آلامه فأبصرت أخيراً نور
قيامته المجيدة.
أجل في أسبوع الآلام هذا وبينما تتأمل الكنيسة آلام
مخلصها يسوع المسيح وتستذكر صلبه وموته فإنما
تؤكد تؤمن أن المسيح قد داس الموت بالموت
وأنه قد وهب الحياة للذين في القبور.

فرجاؤنا في المسيح أن الفقيدة أم زوزو قد انتقلت من دار
الفناء إلى دار البقاء ومن عالم الموت إلى عالم الحياة.
لقد أمست فقيدتنا في قلب الله إلى الأبد.
ولذا ستبقى ذكراها في قلوبنا جميعا إلى الأبد.

آمين

بيتلحمي أصيل

كريمات الفقيد، أقرباءه وأنسباءه،
أيها الأخوة والأخوات الأعزاء...

لمن قرعت أجراس الكنيسة اليوم
وما لرنينها يقطر حزنا وألما؟
ولمن سار هذا الموكب المهيب
وما للمجتمعين وقد عمهم الألم قنوطاً وتوجعا؟

ألعلهم سمعوا بموت فقيدنا؟
ألعلهم أحسوا بفقدان عزيزنا؟
فأتوا لوداعه الوداع الأخير؟

إن خطبنا بفقدان أخينا ميشيل باسيل لفادح وعظيم...
وإن مصابنا به لجلل ومخيف..
لقد امتدت يد المنون وغدرت بنا فخطفت منا أبا جليلا..
غافلتنا رحى الدهر ودارت علينا فسرقت منا ذخرا ثمينا...
هبت علينا رياح الموت فاقتلعت من وسطنا
علما لوثريا بيتلحميا أصيلا!

ولد الفقيد في مدينة بيت لحم عام ١٩٢١،
لأسرة عرفت بأنها من أوائل العائلات البيتلحمية
التي انضمت إلى الكنيسة اللوثرية.

فجده خليل باسيل كان قد انضم إلى الكنيسة اللوثرية
عام ١٨٦٤، وكان أول مدير لمدرسة الكنيسة
في الريف الشرقي (التعامرة) .

---

* عظة ألقيت في جنازة المرحوم ميشيل باسيل بتاريخ ٢٩|٨|٢٠٠٢.

وقد كان جده هذا متمسكا بعقيدة هذه الكنيسة، ثابتا على
إيمانه، فاضطهد حينها بل وأدخل السجن زورا وبهتانا
عله يترك كنيسته ولكنه قاوم وثبت وصار بحق أحد
أعمدة هذه الكنيسة الصامدة. وقد منحه الإمبراطور الألماني
وليم الثاني إبان زيارته لمدينة بيت لحم عام ١٨٩٨
وسام الدولة من الدرجة الأولى.

أما أبوه توفيق باسيل رحمه الله فقد كان أول مصور في مدينة بيت لحم،
وبقي لسنين طويلة المصور الوحيد في محافظة بيت لحم.
ولد الفقيد ميشيل مع بدء الانتداب البريطاني على فلسطين،
وأدخله والداه أولا في المدرسة اللوثرية في بيت لحم
ومن ثم أرسلاه ليكمل تعليمه في مدرسة صهيون في القدس،
وكانت هذه من أشهر المدارس حينها.

وبعد تخرجه من هناك ارتأى المرحوم أن يرث مهنة
التصوير عن والده، وكان قد تعلمها بالممارسة فأتقنها..

ولكنه كان إنساناً نشيطاً، يحب الحركة ويعمل بلا كلل
أو ملل. فقرر أن يعمل عملاً آخرا إلى جانب
التصوير، فافتتح أول مصنع للشمع في بيت لحم،
وكان الشمع قبلها إما في الأديرة أو في القدس.

وحتى وفاته بقي المرحوم متمسكا بهذه المهنة، وكان يفاخر دوما
بأنه لا يصنع الشمع إلا من شمع النحل ذي الجودة
المميزة وكان المورد الوحيد والرئيس للكثير من الأديرة
والكنائس ليس في بيت لحم فحسب، بل في فلسطين قاطبة.

وبعيد انتهاء الحرب العالمية قرر المرحوم أن
الوقت قد حان ليجد شريكة حياته فاقترن بزوجته
الأولى هدى ورزق منها ببنات ثلاث.

ولكن شاءت الأقدار أن تخطف يد المنون زوجته هدى
منه، فتزوج عام ١٩٦٠ بزوجته الثانية المرحومة ملكة

حيث رزق منها بأطفال أربعة، ولكن شاءت الأقدار أن يفقد
زوجته الثانية بعد صراع طويل مع المرض ليمسي وحيدا مرة أخرى.

في الأسبوع الأخير زرت الفقيد مع أعضاء من عمدة هذه
الكنيسة وكان يعاني من كسر في الحوض،
كان كثير التألم جراء هذا الكسر، كثير التأوه،
وكان حزينا جدا لأن عائلة باسيل ستنقرض
من هذه المدينة بموته ، ولكنه وبالرغم من أحزانه كان حبه للحياة
باديا وجليا...أحب الجمال وأحب الحياة وأحب الناس.

ولكن في الأيام الثلاثة الأخيرة تدهورت صحته،
فرأينا الموت على بشاعته، اختبرناه على حقيقته..
رأيناه يغافلنا ويخطف منا فقيدنا دونما موعد ولا استئذان.

ونفيق اليوم ولا نكاد نصدق أعيننا...
أحقا قد رحل عنا ميشيل ؟
أحقا قد تركنا هذا الفاضل؟
أحقا قد غاب عن أبصارنا وكأنه حلم ليس إلا؟

واليوم، ونحن نجابه الموت وجها لوجه
لا يسعنا إلا أن نشكر الله على حياة فقيدنا الراحل...
على عطائه ...على شهادته التي وإن مات فما
زالت حية وبليغة...

أجل لقد كان المرحوم صانع الشمع،هو شمعة بنفسه...
شمعة احترقت، لا لتندثر بل لتضيء دروب من حولها،
واليوم لن تنطفئ هذه الشمعة لتزول إنما لتضيء من جديد
في عالم النور والبهاء والضياء...

والآن، أيها الأخ العزيز ميشيل...
قد جاء الوقت لكي نودعك...
لن نستطيع السير معك بعد الآن
فتقدم ولا تخف...

فلن تدخل عالماً مجهولاً... بل ستعود
إلى وطنك السماوي كما ترجع طيور اللقلق إلى
موطنها في الميعاد.

ترجل ولا ترهب...
إذ ستنتقل اليوم من عالم الإيمان إلى عالم العيان...
لقد كنت أنت المصور تنظر قبل الآن في صورة تحاول فك اللغز
أما الآن فوجها لوجه ستراه.

ستغيب اليوم عن ناظرينا
لكن لا لتختفي بل لتقيم في قلب الله...
أما ذاكراك فستبقى حية وعطرة في قلوب كريماتك ومحبيك.

فللفقيد الرحمة ولكم من بعده طول البقاء.
وعزاؤنا هو عزاء المسيح، عزاء القيامة للحياة الأبدية.

آمين

تبسم للحياة

عقيلة الفقيد أم بندي،
الأعزاء أبناء الفقيد، سامية، بندي، باسم وماهر
أقرباء الفقيد وأنسباءه،
أيها الأحباء في الرب:

لمن قرعت أجراس الكنيسة اليوم، وما لرنينها يقطر حزناً وألما؟
ولما اجتمع الحاضرون من بقاع الأرض وما بهم ممتلئين صمتاً ووجعاً؟
ألعلهم سمعوا بموت فقيدنا؟
ألعلهم أحسوا بفقدان عزيزنا، فأتوا لوداعه الوداع الأخير؟

إن خطبنا بفقدان أبي بندي لجلل عظيم...
فلقد امتدت يد المنون وغدرت به فخطفت منا زوجاً جليلاً...
غافلتنا رحى الدهر ودارت علينا فسرقت منا مربياً حكيماً...
هبت علينا رياح الموت...
هبت علينا رياح الموت واقتلعت من ديارنا علماً لوثرياً أصيلاً...

أتينا اليوم لنودع أستاذاً فاضلاً...
لم نأت لنتحسر على أيام خلت أو ذكريات عصفت...
ولم نأتِ لننتحب كما ناحت النسوة في القديم أمام القبر الفارغ...
إنما قدمنا إلى هنا لنرجعِ الوديعة الى خالقها...
وقلوبنا ثلج شكراً وايماناً ورجاء...

أجل لم نأتِ لنتحسر بل لنشكر...
فسنّ الإنسان سبعون سنة وإن عمّر فثمانون...
فلنشكر الباري على ستة وثمانين عاماً من العطاء...

---

* عظة ألقيت في جنازة المرحوم الأستاذ ميخائيل زبانة بتاريخ ٢١ | ٣ | ٢٠٠٨.

أجل لم نأت لنتحسر بل لنشكر ...
لنشكر الخالق على نصف قرن ونيف في قرانٍ مبارك...
من شراكة حقيقية ... ومن زواج مسيحي...

لقد كان المرحوم رجلاً ولا كل الرجال:-
آمن بالمساواة التامة في العلاقة الزوجية ...
وقلما رأيته وحيداً... بل في كل شيء كانت أم بندي سميرته
وشريكته وقرينته في التسوق كما في الزيارات...
في الحِلّ كما في الترحال...

عرفناه رفيقاً.. سواء أكان ذلك حول طاولة النرد، أم في الأمسيات حول كأسٍ صغير يفرح قلب الإنسان...
عرفناه مثقفاً ...يهوى القراءة كما يهوى سماع الموسيقى، وما من حفل موسيقي كلاسيكي أو ديني إلا وكان أبو بندي هناك...
عرفناه ونيساً... يحب زيارة المرضى... لا يألو جهداً في التخفيف عنهم أوجاعهم ... كان أنيس وحدتهم ، يسأل عنهم عبر الهاتف بانتظام...
أجل كان الفقيد شريكاً حقيقياً...
فحتى عندما قدم إلى عمان في رحلته الأخيرة هذه...
عز عليه فراق أخيه الأصغر... وكأنه لم يرد أن يسير توفيق وحيداً في طريق الموت ... فشد الرحال معه ونيساً يطرد عن الحمام وحشته...
أجل عرفناه زوجاً حنوناً وأباً رؤوفاً وأخاً مخلصاً وسنداً قوياًعند الملمات ...

ويبدو لي أن المفتاح إلى فهم حياة أستاذنا الراحل إنما يكمن في الأسماء التي اختارها لأبنائه...
فهنا بندي... وكأنه جاء ليذكر المرحوم بأصله وفصله...
فلقد ولد المرحوم لبندي زبانة في الرملة عام ١٩٢٢...
وكان هو البكر التوأم لأخيه جبرا...

هناك وفي ربوع الرملة شب وترعرع ... والتحق بمدرسة شنلر
في بيرسالم أولاً ثم في القدس...وعاد إلى الرملة...
ليهجر أبان النكبة عام ١٩٤٨... حيث لجأ إلى رام الله ومن ثم إلى بيت لحم حيث استقر بعيداً عن موطن رأسه...
وها هو اليوم يدفن بعيداً عن ثرى فلسطين في أرض الأردن الشقيق...

وهنا ابنته سامية... أسماها كذلك لإيمانه بسمو الأخلاق...
فلقد رضع الفقيد مكارم الأخلاق في مدرسة شنلر زاداً دسماً... هناك تربى على المبادئ الأنجيلية... ولا أذكر يوماً من أيام الأحد غاب فيه عن الكنيسة...
ولم يكن من قبيل الصدفة أن تطلب الكنيسة منه أن يكون واعظاً يئم في الناس عند غياب الراعي وفي الكثير من المناسبات... ولم يكن من قبيل الصدف أن يخدم أبو بندي مربياً في البيت الداخلي... أجل على هذه الأخلاق السامية ربى الفقيد أجيالاً لم تنس يوماً فضله أو علمه أو شهادته...

ثم جاء الأبن الثالث...
ولم يتردد أبو بندي فأسماه باسم... فلقد كان المرحوم باسم الوجه...
باش المحيا... يحب الفكاهة والطرافة... والأهم أنه كان مجبولاً بالتفائل...
فمهما كانت الأحوال... ومهما ساءت الأوضاع... ومهما اسودت الآفاق كان أبو بندي يحافظ على تفائله كمن يجمع عملة نادرة لا تقدر بأثمان...
وكان يقولها دائماً: أنا متفائل!!!

عجبي لك يا أبا بندي... فلقد خسرت الديار
وهجرت الأوطان... وعاصرت عشراً من الحروب المحلية والإقليمية والدولية... ورأيت بأم عينك قضية شعبك تباع في المزادات ورغم كل ذلك بقيت متفائلاً لا تتزعزع...
وربما لم يضاهِ أبا بندي في التفائل أحدٌ سوى إيليا أبو ماضي والذي قال:

هو عبء على الحياة ثقيلٌ	من يظن الحياة عبئاً ثقيلا
والذي نفسه بغير جمال	لا يرى في الوجود شيئاً جميلا...
أيهذا الشاكي وما بك داء	كن جميلاً ترى الوجود جميلا...

أجل كان الفقيد جميلاً... فرأى الوجود جميلاً...
ولا أشك لحظة أن أبا بندي حافظ على هذا التفائل حتى في مواجهته للموت...
وكأنه آمن دائماً أن الكلمة الأولى والأخيرة هي ليست للبشر
بل للرب المقام من بين الأموات...

وآخر الكل أطل الأبن الأصغر فأسماه ماهر...
لا لسبب إلا لأن أبا بندي كان من الرجال الماهرين...
كان ماهراً في دراسته فطلب منه شنلر
أن يصبح أستاذاً في مدرسته في الناصرة ولاحقاً في بيت لحم...

وكان المرحوم ضليعاً في اللغات ... فلغته الألمانية كانت تضاهي لغته الأم ...
أما عن اللغة العربية فحدث ولا حرج...
أذكره بعد كل عظة ألقيها يأتي إلي ويقول:
«اليوم لقيتلك أربعة أخطاء لغوية"... وخوفاً من أن أصاب بالاكتئاب كان يضيف معزياً :" ولكنك أقلهم أخطاء لغوية...»

أجل في اللغات... كما في الترجمة... كما في التأليف كان المرحوم ماهراً مؤمناً أن كل ما عملتم من قول وفعل فاعملوا من القلب كما للرب وليس للناس...

أجل أيها الأحباء....
إذ أتت الساعة كي نودع معلمنا الوداع الأخير...
دعونا نقولها من القلب كما للرب وليس للناس...
«سنفتقدك يا أبا بندي...
ستفتقدك زوجتك وأبناؤك وأحفادك وأحباؤك...
إذ في الليلة الظلماء يفتقد البدر...»
دعونا نقولها وبلا مقدمات...
ستفتقدك الألوف المؤلفة من طلابك الذين زرعت فيهم
حب العلم وبذور الأيمان...
دعونا نقولها وبلا مواربات ...
ستحن الكنيسة لذلك الصوت الدافئ...
الذي كان يجلجل من على المنبر وعظاً... ومن خلف الأرغنِ ترنيماً...
ومن على المذبح صلاة وإرشاداً...
دعونا نقولها وبلا مجاملات...
سنتوق لإطلالة أبي بندي وهو يقطع الطرقات بحثاً عن فاكهة طازجة صبحاً...
أو لعيادة مريض عصراً أو للأشتراك في برامج أجيال...
ولكننا لم نأت إلى هنا لنتحسر بل لنشكر واثقين أن معلمنا الراحل قد انتقل من الموت إلى الحياة
ومن النفق المظلم إلى رحاب الضياء
ومن عالم الأيمان الى عالم العيان
فتقدم يا أبا بندي ...
تقدم ولا تخف...
فلا هجرة بعد اليوم... بل سترجع إلى موطنك السماوي كما تعود طيور اللقلق إلى أوطانها في الميعاد...

تقدم ولا تخف...
لقد أحببت دوماً الموسيقى وكأنك تتدرب على لغة الملائكة
والسماء حيث يسبح الفادي بلا انقطاع...

تقدم ولا تخف...
فلن تجد هناك متشائماً واحداً... بل مجموعة فرحة...
بسلام حقيقي...

تقدم ولا تخف...
لن نستطيع أن نسير الميل الأخير معك...
ولكننا نثق أنك في أيدي أمينة... حيث المراعي الخضراء...
حيث ستسكن في قلب الله...
ولكن وعداً أن تبقى ذكراك العطرة حية في قلوبنا أجمعين...

فبالأصالة عن نفسي وبالنيابة عن سيادة المطران منيب يونان، وعن رئيس وأعضاءالمجلس الكنيسي، وإدارة وأسرة المدارس اللوثرية، وبالنيابة عن أسرة أجيال نعزيكم عزاء القيامة بالحياة الأبدية... فللفقيد الرحمة ولكم جميعاً من بعده طول البقاء...

تواضع

عبرا : ١١: ٤

أختنا السيدة بيرتا، أخوتنا السادة منير وطوني سابا،
أقرباء الفقيد وأنسباءه المحترمين، أيها الحفل الكريم...

لمن قرعت أجراس الكنيسة اليوم. وما لرنينها يقطر حزنا وألما؟
لما اجتمع رجالات بيت لحم الآن وما بالهم ممتلئين صمتا ووجعا؟

ألعلهم سمعوا عن موت فقيدنا؟
ألعلهم أحسوا بفقدان عزيزنا فأتوا لوداعه ولأحياء ذكراه؟

أيها الأحباء، إن خطبنا بفقدان أخينا البير سابا لفادح وعظيم،
وإن مصابنا به لعميق وكبير...
فلقد امتدت يد المنون وغدرت بنا فخطفت منا أخاً وديعاً جليلاً...
غافلتنا رحى الدهر فدارت علينا وسرقت منا ذخراً ثميناً...
هبت علينا رياح الموت فاقتلعت من وسطنا علماً لوثرياً بيت لحمياً أصيلاً.

أجل لقد رقد عزيزنا ألبير، ولكنه وإن مات فلم يزل يتكلم،
وإن صمت لسانه، فسيرته ما زالت تتكلم،
حتى بعد وفاته ما زالت حياته ناطقة بليغة.

عرفت الفقيد ألبير وتعرفت عليه قبل زهاء السنتين،
كان عزيزنا قد جاء مع زوجته وكريماته من دولة قطر،
ليقضوا إجازتهم في مسقط رأسهم وبين أهلهم وأخوتهم.
كنت قد سمعت عن عزيزنا الكثير،
كيف لا أسمع وهو رجل بيت لحمي أصيل،
كيف لا أسمع وقد نشأ في بيت لحم لوثرياً عريقاً؟

---

* عظة ألقيت في جنازة المرحوم ألبير سابا.

كان قد تناهى إلى مسامعي أن لعزيزنا في دولة قطر مركزاً
قيادياً عظيماً وأنه يتقلد منصباً حكومياً رفيعاً.

وجاء يوم اجتمعت فيه مع فقيدنا البير،
تحدثت إليه فلم أسمع منه كلمات تنم عن التفاخر،
تأملت بعينيه فلم أجد أي أثر لنظرات التغطرس والتكبر.
فلقد ظل أخونا ألبير رغم علو منصبه إنساناً
في غاية التواضع... بقي عزيزنا رغم سمو مركزه
إنساناً بكل ما تحمله هذه الكلمة من معان،
لم يكن ألبير من أولئك الرجال الذين جلسوا على كراسيهم ليستبدوا
بإخوانهم، ولم يكن من أولئك الناس الذين أساؤوا استخدام
السلطة الموكلة إليهم، بل لقد اقتدى فقيدنا بمعلمه
ومخلصه يسوع فسعى لا ليُخدم بل ليَخدم. وعمل
لا ليأخذ بل ليبذل. آمن بأن الحياة بذل وعطاء،
وأن المسيحية خدمة وتفان.

هناك أمر ثان لفت نظري في فقيدنا الراحل...
فلقد أبى عزيزنا أثناء زيارته للبلاد، أبى طوال مدة إجازته
إلا أن يواظب على الكنيسة، فظل يتردد إليها الأحد تلو الآخر.

لم تكن الإجازة في نظره فرصة للتهرب، بل للتقرب من الله.
لم يكن الإيمان المسيحي حسب رأيه أمرا ثانوياً هامشياً.
بل رأى ألبير فيه أمراً أساسياً، حياتياً ومصيرياً.

أيها الأحباء، اليوم ونحن نحيي ذكرى عزيزنا الراحل، ندرك أنه
وإن مات البير، فلم يزل يتكلم، وإن غاب عن أنظارنا
فإيمانه وسيرته لماثلتان أمام عيوننا.

إنا نشكر الله على حياته، فلقد كانت حياة فياضة، مقدامة
أعطت بكثرة وأنتجت بوفرة.

لقد تمسك ألبير طوال حياته بمخلصه يسوع
فلن يتركه المخلص في ساعة موته وفي محنته،

بل إنا لواثقون بأن أخانا ألبير قد رجع
إلى موطنه الأصلي، عاد إلى وطنه السماوي،
لقد منعته يد الاحتلال من الرجوع إلى وطنه فلسطين،
فمات في الغربة ودفن في غير ثرى بيت لحم،
ولكن ما من قوة تستطيع أن تفصله عن موطنه السماوي
ما من سلطة تستطيع أن تبعده عن قلب اللّٰه
وعن رحمته وعن محبته...

أخوتي الأحباء، أهل الفقيد وأقرباءه وأنسباءه،
هذا هو إيماننا، وهذا هو عزاؤنا،
إن المسيح قام من بين الأموات، وداس الموت
بالموت ووهب الحياة للذين في القبور.

آمين

حياة حافلة

عقيلة الفقيد أم يعقوب،
الأعزاء أبناء الفقيد عيسى،سامي،وفيوليت،
أقرباء الفقيد وأنسباءه،
أيها الأحباء في الرب،

أجراس هذه الكنيسة تبكي اليوم إذ تودع عزيزاً، رأيته يأتي ههنا الأحد تلو الأخر وكأنه كان منها على ميعاد...

أورغن كنيسة الميلاد يقطر اليوم حزناً على عضو راح صوته ولستين عاماً مضت يصرح في أفياء هذا البيت المقدس بلا انقطاع... كلنا: صغاراً، وكباراً قدمنا ههنا لنودع رجلاً جليلاً... أستاذاً فاضلاً... وعلماً لوثرياً أصيلاً...لم نأت ههنا نتحسر على أيام حلت أو ذكريات عصفت، ولم نات لننتحب كما ناحت النسوة في القديم، أمام القبر الفارغ، بل قدمنا ههنا لنرجع الوديعة إلى خالقها وقلوبنا تلهج شكراً وايماناً ورجاءً...أجل لم نأت لنتحسر بل لنشكر، فسن الإنسان هي سبعون سنة وإن عمرنا فثمانون، فلنشكر الباري على سبع وثمانين سنة من العطاء... فلقد ولد الفقيد عام ١٩٢٢ في مدينة الرملة، وانتقلت عائلته بعد ولادته بقليل إلى مدينة يافا، عروس البحر الفلسطينية... هناك وعلى وقع أمواج البحر المزبدة راح ينمو... وفي حارات أحيائها الحجرية راح يلعب... ولكن ما هي إلا سنوات قلائل حتى فقد فقيدنا والدته وأضحى يتيماً بلا قلب يحنو عليه أو حضن يضمه... لذلك لم يجد من ملاذ آمن إلا عند الآب شنلر في مدرسة الأيتام السورية حيث التحق بها عام ١٩٢٨.هناك أنهى المدرسة الابتدائية والإعدادية ليلتحق بدار المعلمين التابعة لها... فلقد رأى فيه شنلر ... طالباً مجتهداً... وتلميذاً موهوباً بل وقائداً مسؤولاً...

وكان المرحوم خريج آخر دفعة في مدرسة شنلر إذ وضعت القوات البريطانية يدها على المدرسة عام ١٩٤٠ وحولتها إلى معسكر للجيش حيثما بقيت

* عظة ألقيت في جنازة المرحوم فهد أبو غزالة بتاريخ ٢٢ | ٤ |٢٠٠٩.

هناك لعدة سنوات خلت. وكالعديد من أترابه عمل الفقيد مع قوات الانتداب البريطانية في مجال الترجمة والطباعة.
هناك في يافا تأثر بالقس فريد عودة وبعظاته البليغة حتى ترك هذا أثراً في حياته...

وبعد احتلال يافا عام ١٩٤٥ لجأ الفقيد إلى القدس حيث عمل في جريدة فلسطين وبقي فيها حتى عام ١٩٤٩ حيث دعاه شنلر ليدرّس في مدرسته التي كان قد نقلها إلى بيت لحم بجانب هذه الكنيسة. هنا بدأ المرحوم مع العديد من طلاب شنلر ببناء مدرسة مبتدئين بثمانين طالباً، ورويداً رويداً عمل الفقيد على تطوير هذه المدرسة، حيث استلم ادارتها عام ١٩٦٢ وبقي في منصبه هذا حتى تقاعده عام ١٩٨٠.

ولأنه كان شنلري أصيل فلم يستطيع أن يركن إلى الكسل بل بقي فاعلاً، نشيطاً ومنتجاً... فراح يعلم اللغة الألمانية في مدرسة الرجاء ويقطع المسافات بين بيت لحم ورام الله مستثمراً في الجيل الجديد... كما واستلم برنامج التبني لقرية الأطفال لثماني سنوات...

في هذه الفترة طلب أحد الأشخاص من الفقيد ترجمة كتاب تاريخ الكنيسة في الأرض المقدسة لمؤلفه فريدرشي هاير على عاتقه الشخصي، كما قام بترجمة حجج مارتن لوثر الخمس والتسعين من الألمانية إلى العربية هذا بالإضافة إلى كتاب "أنشودة العذراء تعظم" وكتاب "طريقة بسيطة للصلاة" أيضاً للمصلح مارتن لوثر... كما وقام لسنين عديدة بترجمة آيات كتابية يومية للغذاء الروحي... هذا بالإضافة إلى تحرير مجلة كنيستك وإصدارها فصلياً باللغة العربية...

أجل كان الفقيد في اللغات، كما في الترجمة... مميزاً... في التعليم كما في التربية... كان المرحوم علماً من أعلام عصره...

أجل أيها الأحباء،
حانت الساعة لنودع أستاذنا الوداع الأخير... دعونا نقولها من القلب كما للرب وليس للناس:"سنفتقدك يا أبا يعقوب..."
سأفتقد فيك تلك الأذن التي كانت تصغي لكل كلمة من العظات...سأفتقد لملاحظاتك التي لم تكن تمر عنها شاردة ولا واردة... سأفتقد لذلك الانتماء الذي

لم يعرف يوماً حرداً، أو انسحاباً أو تعالياً بل التزاماً أكيداً حتى ولو على كرسي متحرك...

أجل، دعونا نقولها وبلا مقدمات...
ستفتقدك الألوف المؤلفة من طلابك وأنا منهم الذين زرعت فيهم جذور العلم وبذرة الإيمان...

دعونا نقولها، وبلا مورابات...
ستحن الكنيسة لذلك الصوت القوي... الذي كان يجلجل من على هذا المنبر وعظاً... ومن خلف الأرغن ترنيماً... ومن على المذبح صلاة وارشاداً...دعونا نقولها وبلا مجاملات...سنتوق لمزاج أبي يعقوب... كما سنتوق لبكاء الشيخ طريح الفراش... ولكننا لم نأت إلى هنا لنتحسر بل لنشكر واثقيين ونحن ما زلنا في رحاب عيد الفصح. إن أخانا قد انتقل من الموت إلى الحياة، ومن النفق المظلم إلى رحاب الضياء، ومن عالم الإيمان إلى عالم العيان...

فتقدم يا أبا يعقوب... تقدم ولا تخف... فيسوع قد داس الموت وفتح لك باب السماء... وبقيامته قد أنار الخلود... وترك لك عربون رجاء... وها هو اليوم يدنو منك مرحباً يود أن يقودك إلى ديارك الأبدية ، وفي الميعاد المحدد... هناك ستسكن في قلب الله ولكن ذكراك ستبقى حية في قلوبنا أجمعين.

حياة في تربية الأجيال

أختنا أريج، أبناء الفقيد وأخوته...
أقرباءه وأنسباءه، يها الأخوة والأخوات الأعزاء...

لمن قرعت أجراس الكنيسة اليوم
وما لرنينها يقطر حزنا وألما؟
ولمن سار هذا الموكب المهيب
وما للراجلين وقد عمهم الألم قنوطاً وتوجعاً؟

ألعلهم سمعوا بموت فقيدنا؟
ألعلهم أحسوا بفقدان عزيزنا؟
فأتوا لوداعه الوداع الأخير؟

إن خطبنا بفقدان أخينا أبى إياد لفادح وعظيم...
وإن مصابنا به لجلل ومخيف...
فلقد امتدت يد المنون وغدرت به فخطفت منا أبا جليلا...
غافلتنا رحى الدهر ودارت علينا فسرقت منا ذخراً ثميناً...
هبت علينا رياح الموت فاقتلعت من وسطنا
مربياً فاضلاً وعلماً لوثرياً أصيلاً.

ولد الفقيد في مدينة بيت ساحور عام ١٩٣٧،
أي بعد الانتفاضة الفلسطينية الأولى وإضرابها الشهير،
وها هو يرحل عنا في انتفاضة أخرى، وكأنه بذلك
يرسم ملامح جيل فلسطينيّ. ولد وعاش وها هو يموت
ولم ير عدلاً ولا سلاماً ولا اطمئناناً.
وشب الفقيد في هذه المدينة العامرة،
يختبر ويلات الحرب العالمية الثانية وعاش النكبة،

* عظة ألقيت في جنازة المرحوم يعقوب قمصية (أبو إياد) بتاريخ ٧|٩|٢٠٠١.

وأدرك أن ما من خلاص لهذه الأرض وما من أمل لهذا الشعب
إلا إذا حمل أبناؤه العلم سلاحاً، والقلم عتاداً...
والتربية نبراساً ومناراً.

وما أن أنهى الفقيد مدرسة بيت لحم الثانوية، حتى ليلتحق
بدار المعلمين في الأردن والتي تخرج منها أواخر الخمسينيات
ليعود من بعدها إلى بلدته التي أحبها وإلى مهنته التي
عشقها من تربية وتعليم...

وحتى عندما أراد الفقيد أن يجد قرينة تشاطره الحياة
بأفراحها وأتراحها، ما وقع اختياره إلا على مدرسة شابة
وابنه مدرّس علم فذ وفاضل،
حيث عقد قرانه على زوجته أريج في
هذه الكنيسة عام ١٩٦٠.

وباشر الفقيد عمله معلماً لمادة الرياضيات،
ولكنه كان قد تأثر برياح التربية الأوروبية الحديثة
فكان من أوائل الذين نادوا بإعطاء الطالب قسطاً
لا بأس به من الحرية الفردية...

وقد نبغ الفقيد في عمله، فعين عام ١٩٧٧ مديراً
للتربية للمدارس الإنجيلية اللوثرية، ليكون بذلك أول فلسطيني
يتبوأ هذا المركز.

ولقد ترك الفقيد بصماته على مؤسسات هذه الكنيسة،
فإبان خدمته تم توسيع مدرسة بيت ساحور، وبناء جناح
جديد لمدرسة بيت لحم، وإقامة بيت داخلي عصري،
وتشييد صرح طاليثا قومي الحديث.

وخدم المرحوم الكنيسة ومدارسها في ظل الاحتلال الإسرائيلي،
لكنه أدرك أن النظام التربوي السائد نظام عقيم أكل الدهر عليه
وشرب، ورأى فيه نظاماً يقمع الفكر، ويكبل
الإبداع ويطمس هوية الشعب الديناميكية،

ولا يخرج إلا عملة رخيصة لاقتصاد الاحتلال،
أو شباباً تطلب العلم في المهجر الذي لا عودة منه.
لذا نادى الفقيد بفلسفة تدعو الشعب للوعي والمشاركة...
وكان من أوائل من نادوا بأهمية بلورة منهاج فلسطيني
حديث يفعل الفرد ويخدم المجتمع الفلسطيني ويمده
بالطاقات البشرية المؤهلة والمفعلة.

أجل صارع الفقيد الجهل وكرس حياته لخدمة العلم،
ثم تقاعد عسى أن يجد راحة وطمأنينة، ولكن ما هي إلا
سنين قليلة حتى راح المرض يغالبه ويصارعه،
وما هي إلا أيام قليلة حتى تربص به الموت وصرعه.

أجل...في الأسبوع المنصرم رأينا الموت على بشاعته...
اختبرناه على حقيقته ...
رأيناه يغافلنا، وخلال أيام خمسة رأيناه يخطف
منا فقيدنا دونما موعد أو استئذان.

ونفيق اليوم ولا نكاد نصدق أعيننا...
أحقا قد رحل عنا يعقوب؟ أحقا قد تركنا أبو إياد؟
أحقا قد غاب عن أبصارنا ذلك العالم الفذ والمربي
الفاضل وكأنه حلم ليس إلا؟
في هذا الصباح سمعت الكثيرين يقولون: «الحياة فش عليها أسف»،
فالإنسان كالطير مهما علا وارتفع إلا وتصيبه سهام
المنون لتطرحه أرضا وتتركه عظماً...

إن حياتنا حقا كلمح البصر، سريعة وخاطفة...
ولكنها لهذا السبب عينه لمهمة وغالية...
إنها حقاً قصيرة ولكنها قيمة وثمينة...
فعلى فراش الموت ...يحل لغز الحياة
فالحياة كالرواية لا تفهم إلا من نهايتها...
ولا تفك طلاسمها إلا ساعة الخاتمة...
اليوم، إذ نجابه الموت وجها لوجه...
لا يسعنا إلا أن نشكر الله على حياة فقيدنا الراحل...

على عطائه وعلى شهادته التي وإن مات فما زالت
حية وبليغة...

أجل كان أبو إياد شمعة احترقت، ولكن لا لتندثر،
بل لتضيء لمن حولها، واليوم تنطفىء هذه الشمعة
لا لتفنى بل لتحل في عالم النور والبهاء والضياء...

واليوم إذ سنواري جسد الفقيد التراب،
إنما ليكون حبة حنطة تذرى في الأرض، لا لتموت،
بل لتقوم على رجاء حياة أبدية بلا انتهاء...

والآن يا أبا إياد...
قد جاء الوقت لكي نودعك ...لن نستطيع السير معك بعد الآن
فتقدم ولا تخف...فلن تدخل عالماً مجهولاً لديك
إنما ستعود إلى وطنك السماوي،
كما ترجع طيور اللقلق إلى موطنها في الميعاد...
ترحل ولا ترهب...
إذ ستنتقل اليوم من عالم الإيمان إلى عالم العيان
لقد كنت تجري وراء المعرفة، ولكنك اليوم ستعرف
كما عرفت...
لقد كنت تنظر قبل الآن في مرآة تحاول فك اللغز،
أما الآن فوجهاً لوجه ستراه...
ستغيب اليوم عن ناظرينا...

لكن لا لتختفي بل لتقيم في قلب الله...
أما ذكراك فستبقى حية عطرة في قلوبنا.
فللفقيد الرحمة ولكم من بعده طول البقاء...

آمين

بالأصالة عن نفسي وبالنيابة عن سيادة المطران منيب يونان وعن مجمع الكنيسة ومجلسها وعن مكتب التربية للمدارس اللوثرية، أتقدم لأريج، ولأبناء الفقيد وإخوة الفقيد بصادق تعازينا...

خبز أمي

أحن إلى خبز أمي وقهوة أمي ولمسة أمي، أحن إلى حضرة أمي وضحكة أمي وهمسة أمي، أربعون يوما مذ رحلت عني... أربعون يوما مرت مذ غابت عنا فافتقدناها إذ في الليلة الظلماء تُفتقد الأم. أجل، أربعون يوماً مضت ولم يمض يوم إلا وافتقدناها ولم تنقض ليلة إلا وتذكرناها، وها نحن اليوم قد أتينا لنحي ذكراها بالصلاة والترنم والدعاء. لم نأت لنتحسر على أيام خلت أو ذكريات عصفت، ولم نأت لننتحب كما ناحت النسوة في القديم أمام القبر المغلق، بل قدمنا اليوم لنحيي ذكرى عطرة نحييها بالشكر وبالإيمان وبالرجاء.

أجل أيها الأحباء، لم نأت لنبكي بل لنشكر، وهناك الكثير الكثير مما يدعو للشكر وللعرفان وإذ نتأمل في حياة الفقيدة الراحلة لا يسعنا إلا أن نشكر الله على حياتها وعطائها وحنانها، فقد عاشت المرحومة حياة إنجيلية، ليس لأنها درست في المدرسة اللوثرية فيٍ بيت ساحور، ولا لأنها تأثرت بالروح الإنجيلية للمرحوم والدها الذي لعب دوراً هاما في صقل هويتها، ولا لأنها قد تأثرت في مطلع حياتها بمبشرين إنجيليين أمثال مس مارغريت ومستر Theis فحسب، بل فوق هذا وذاك لأن حياتها برمتها كانت في الاعتماد على مخلصها. فما زلت أراها ووالدي أمام عيني يمسكون بذاك الكتاب المقدس القديم، ذي الحجم الكبير والوزن الثقيل ينهلون منه إيمانا وتعزية ورجاء.

ومازلت أسمع صوتها الجهوري ينشد الترانيم الإنجيلية بشغف وعنفوان وحماس، سواء أكان ذلك وقت الطبخ أو عبر الهاتف أو في دروس الكتاب.

لقد كانت الترانيم التي حفظتها عن ظهر قلب كالماء للأسماك، بواسطتها تتنفس ومعها تتحرك وبها تحيا، عند الفرح ووقت الحزن كانت الترانيم رفيقتها في حلّها وترحالها.. ومازلت أذكرها تصلي قبل النوم وقبل الأكل وفي الكنيسة ههنا، خاصة قبل هذا اليوم من رأس كل عام... خبرتها تصلي زمن اليسر، كما على فراش المرض وإذ قاربت على الممات... أجل مازلت أذكرها تحن القلوب كي لا

* عظة ألقيت في جنازة المرحومة بديعة الراهب بتاريخ ٢٠٠٦/١٢/٣١.

تقسو، وتخاطب الأرحام كي لا تحقد، وترجو الألباب بألا تنتقم وكان لسان حالها يقول: من يصنع الخير لا يندم ولا يصغُر ولا ينقص بل يكبر على الأحقاد ويسمو على الأعداء.

أجل لم نأت ههنا لنتحسر، بل لنشكر... لنشكر الله على حياتها ومثالها ولننظر إلى مماتها بعيون الإيمان إذ لم ترحل الفقيدة عنا قبل موعدها، كما لم تتأخر عن موعد سفرها بل غادرتنا في الموعد المحدد وفي الميعاد. تركتنا بعد أن رأت أبناءها وقد اشتد عودهم وأبصرت أحفادها وقد أطمئنت على مستقبلهم. لقد أحبت الفقيدة الحياة بالرغم من كثرة أتعابها وأمراضها... وآمنت أن في الحياة ما يستحق الحياة وبقيت تصارع المرض حتى آخر رمق في حياتها وحتى عندما أوشكت حياتها على الغروب بقيت تقول: «أنا منيحة... أنا أحسن... نشكر الله...» ولكن في الأشهر الخمسة الأخيرة، اكتشفت الفقيدة أن أفخر سنيّ الإنسان حقاً لتعب وبلية. فرويداً رويداً راحت تفقد النظر وشيئاً فشيئاً راحت تخسر السمع وأكثرُ الكل عانت من مرض عُضالٍ سرق منها نظرتها وقوتها وعنفوانها وجعلها طريحة الفراش لا تقوى على الحركة... رويداً رويداً راحت الحياة تفقد بريقها ومعناها ولونها... ورأينا التي أحبت الحياة تكتشف أن الحياة كعشبٍ يبزغُ ثم ينشف شيئاً فشيئاً راحت الفقيدة تحزم أمتعتها وكأنها مسافرة تستعد للرحيل.

وراحت - وهي التي عشقت الحياة - تبصر والدها وقد عاد يدعوها لأن تعود كما تعود طيور اللقلق إلى أوطانها في الميعاد... وتركتنا وكانت آخرُ كلمة نطقت بها على الهاتف لأختها: «وأنا أيضا أحبك». وركبت قطار الموت وعلى وجهها ابتسامة عريضة وتركتنا خلفها على الرصيف وقد اغرورقت أعيننا بالدموع.
ولكننا لم نأت ههنا لنحزن كالباقين الذين لا رجاء لهم، بل على العكس تماما إنما أتينا لنشهد لرجاء القيامة بالحياة الأبدية، لقد كانت الأسابيع الأربعة الأخيرة في حياة المرحومة أسابيع لا تعوض، ففي الكثير من الأمسيات وبعد أن يترك الضيوف والأقارب، كنا نجتمع وأختي حول فراش الوالدة، كانت هي تمسك بيدها اليمنى وأمسك أنا بيدها اليسرى، كنا نقضي زُهاء ساعة في قراءة المزامير في الترانيم وفي الدعاء، لقد لفظت أنفاسها ونحن على هذا الحال، نرافقها بترانيم قيامة وبعثٍ وإيمان ورجاء.

في هذه الأمسيات اكتشفت وللمرة الأولى روحانية إنجيلية تجابهُ الموت بعيون الرجاء وتتحدى القبر بنور القيامة والضياء وتعلو على المرض والوجع بقوة رب

الحياة، أجل أيها الأحباء، كتابنا المقدس وترانيمنا وروحانيتنا كلها تشهد لرجاء حي بقيامة يسوع المسيح من بين الأموات. لن أرتل بعد اليوم ترنيمة الأدفنت كالسابق، بل هناك وعلى فراش الموت سمعتها وكأني أسمعها للمرة الأولى:-

هوذا ابن الله يأتي		نفسي كوني بانتظار
وإذا في القبر بت		ليلة يأتي النهار

هناك ونحن على موعد مع الموت، فهمت كلمات الترنيمة فهماً جديداً:

الليل منته دنا النهار		وكوكب الإصباح حيانا
ومجد وجه الرب قد أنار		إقباله في المجد قد حانا

أجل، قاب قوسين من القبر، هناك فقد الموت شوكته والقبر صولته والمرض سلامته، لذلك أردنا للجنازة ألا تكون جنازة، بل أردناها أن تكون احتفالاً بقيامة قبل موعدها بقليل، لذلك اخترنا ترانيم قيامة وبعث ورجاء. ورنمنا...

يا أمه الحنون		علام ذا الأنين
فنوره المبين		في القبر ضاء

ولا أراها من قبيل الصدفة أن تكون الترانيم المفضلة للمرحومة هي ترانيم تشهد عن هذا الرجاء. وتقول كلمات هذه الترنيمة:-

أيها السياح قولوا		أين أنتم ذاهبون

وتأتي الإجابة

نحن في الأسفار نسعى		نحو فادينا الحنون
فوق سهل وجبال		صوت أفراح الخلود
حيث في الفردوس نجني		كل أثمار الوعود

وفي الأيام الأخيرة راحت الفقيدة تخاطب من سبقوها إلى هناك قائلة:

أيها السياح هلا		تصحبونا في الرحيل

وأنصت فسمعتهم ينادونها...

أقبلوا يا قوم أهلا		أقبلوا نحو السبيل
أقبلوا أهلا وسهلا		إن فادينا يقول
أيها القوم تعالوا		نحو مجد لا يزول

بهذا الرجاء الذي تسلحت به المرحومة نحي هذه الذكرى واثقين أن أم متري قد انتقلت من ظلمة الليل بإحياء النهار ومن أرض الوجع إلى رحاب السلام، ومن سياق الإيمان إلى حيث العيان.

وإن غابت عن الأنظار فقد أضحت في قلب الله، أما ذكراها فستبقى حية في قلوبنا أجمعين.

سائحة

أخونا جورج، الأخوات نادية وليلي،
أقرباء الفقيدة وأنسباءها،
أيها الأحباء في الرب،

لمن قرعت أجراس الكنيسة اليوم، وما لرنينها يقطر حزنا وألما؟
ولمَ اجتمع الحاضرون في هذا المكان المقدس؟ وما بهم ممتلئين صمتاً ووجعاً؟
ألعلهم سمعوا بموت فقيدتنا؟
ألعلهم أحسوا بفقدان عزيزتنا، فأتوا لوداعها الوداع الأخير؟

إن خطبنا بفقدانها لجلل وعميق...
فلقد امتدت يد المنون وغدرت بنا فخطفت منا ممرضة فاضلة
غافلتنا رحى الدهر ودارت علينا فسرقت منا مؤمنة ورعة...
هبت علينا رياح الموت...
هبت علينا رياح الموت فاقتلعت من بستاننا ابنة لوثرية مخلصة...
أتينا اليوم لنودع أختا فاضلة...
لم نأت لنتحسر على أيام خلت أو ذكريات عصفت...
ولم نأت لننتحب كما ناحت في القديم النسوة أمام القبر الفارغ...
بل قدمنا هنا لنرجع الوديعة إلى خالقها...
وقلوبنا تلهج شكرا وإيماننا ورجاء...

ولدت الفقيدة في مدينة بيت جالا عام ١٩٠٣.
ورأت عيناها النور إبان حكم العثمانيين...
وعندما اعتلى حزب تركيا الفتاة الحكم عام ١٩٠٧
وأمر بتجنيد المسيحيين وتحضيرهم وقوداً للحرب العالمية الأولى
التي كان يخطط لها...هاجر الكثير من المسيحيين الفلسطينيين
تجنباً من هذا الواقع المرير
وفي نفس العام ركبت المرحومة مع والدها وعائلتها البحر

* عظة ألقيت في جنازة المرحومة وديعة الصوص - أم جورج زوجة بشارة دقماق بتاريخ ٣٠ | ٧ |٢٠٠٥.

واستقلت من يافا باخرة أقلتهم إلى أوروبا ومن هناك
إلى كولومبيا، حيث أمضت المرحومة بضع سنين...
ولكن لم تكن كولومبيا الأرض الموعودة، فقررت العائلة
الرجوع إلى الوطن...وأدخلت الفقيدة إلى مدرسة طاليثا
قومي في القدس الغربية...مكانِ الهمشبير اليوم...هناك رضعت
الإيمان زاداً...وتسلحت بالعلم نوراً وتزينت بالأخلاق تاجاً مرصعاً...

وضاقت الحال مرة أخرى بعائلة الفقيدة، نتيجة لاندلاع الحرب العالمية الأولى،
فقرروا الهجرة ثانية لكن لا ليبقوا طويلا بل ليعودوا إلى أرض الوطن، إلى حكم
الانتداب البريطاني، عام ١٩٢٧ وليستقروا أخيرا في موطنهم الأصلي، بيت جالا.

هنا وفي بيت جالا تعرفت الفقيدة على رفيق دربها، ابن شنلر،
المرحوم بشارة دقماق... حيث تزوجها عام ١٩٣٨ قبل أن تبدأ
الحرب العالمية الثانية بقليل...
ورزقت منه بخمس أطفال... توفي منهم في الصغر اثنان وهما سمير وريما...
ليبقى جورج وناديا وليلي قرة لعيونهم...

وما أن وضعت الحرب العربية الإسرائيلية أوزارها...
حتى انخرطت الفقيدة في العمل ممرضة مع الاتحاد
اللوثري العالمي في عياداتهم في كل من الخليل وبيت لحم،
لتضمد جراحات المرضى، ولتطبب اللاجئين والمشردين
مقتدية بمخلصها الطبيب الكبير يسوع المسيح...

كان إيمان فقيدتنا قوياً راسخاً، فرغم كثرة التجارب
والأحزان والأوجاع، لم تفقد أختنا يوما إيمانها بربها
وتمسكها به، ... بل ظلت مخلصة له في الضراء كما في السراء...
في المرض والصحة، ما دامت حية...
كان إيمانها صلباً، مؤسساً على يسوع المسيح صخر الدهور...
فلم تستطيع أمواج الشك أو القلق من زعزعته،
بل تحطمت هذه الأمواج عند الصليب وتكسرت عند تل الجلجثة...
لم يكن الإيمان لفقيدتنا نظرية أو معادلة حسابية،
بل كان حياة كنسية... فانخرطت الفقيدة
في عمل لجنة السيدات مع زوجة القس شديد باز حداد

وكرست صوتها الرخيم لفاديها فراحت تنشط
في جوقة الكنيسة، كما وراحت ترنم منفردة...
والكثير ما زالوا يذكرون كيف كانت الفقيدة تحيي ليلة الميلاد
بترنيم في "الدجى والسكون" باللغات الثلاث التي أتقنتها
العربية والإنجليزية والألمانية بجانب اللغة الإسبانية

لم نأت هنا لنتحسر بل أتينا هنا لنشكر...
لنشكر الله على حياة الفقيدة وعلى عطائها المتميز...
لم نأت هنا لنتحسر، بل لنقبل هذا الموت الجلل بإيمان ...
فالكتاب المقدس يقول إن حياة الإنسان هي سبعون سنة
وإن كانت مع القوة فثمانون سنة...
ولكن عندما يغدق الله على أخت ببضع سنين بعد المئة...
ويشبعها في طول الإيمان... عندها وجب الشكر الجزيل.

أجل لم نأت هنا لنحزن كالباقين الذين لا رجاء لهم...
بل على العكس تماما أتينا متسلحين برجاء القيامة للحياة الأبدية...
ولا أراها في قبيل الصدفة أن تكون إحدى ترانيم الفقيدة
المفضلة تلك الترنيمة التي تقول:
أنا لست إلا غريباً هنا فدار السما موطني

أجل، تلك الفقيدة التي هاجرت مرتين ورجعت، إنما اكتشفت
أن الإنسان على هذه المعمورة لسائح غريب... وأن الحياة
لدرب وطريق... وأن الهدف لا يمكن أن يكون إلا الرب المسيح...
والآن إذ أتت الساعة لنرجع الوديعة إلى باريها...
الآن إذ حانت ودقت ساعة الوداع الأخير...

نقول لأختنا الراحلة...
يا أم جورج...تقدمي على هذه الطريق ولا ترهبي
لا تخافي، إذ لن تدخلي عالما مجهولا لديك.
اليوم ستعودين بعد حل وترحال لموطنك السماوي...

اليوم وبعد قرن ونيف سترجعين كما تعود طيور اللقلق
إلى أوطانها في الميعاد...

اليوم ستدخلين بيت أبيك السماوي...
وستسكنين مع المسيح مخلصك...
هناك ستكونين إلى الأبد في قلب الله،
ولكن ذكراك ستظل حية في قلوبنا على مر الزمان...

فللفقيدة الرحمة ولكم جميعاً، الأخ جورج والأخت نادية وليلي،
وعائلة الصوص ودقماق... لكم جميعاً من بعدها طول البقاء...
الرب أعطى والرب أخذ...فليكن اسم الرب مباركاً...

صحفي مخضرم

في التاسع من حزيران من عام ألفين سقط المرحوم نبيل خوري على أرض مطار بيروت قادماً من باريس، بعد أن أصيب بجلطة دماغية أدخلته في غيبوبة سريرية دامت زهاء العامين.
وفجأة صمت ذاك اللسان الذي لطالما خاطب الملايين...وعلى غير ميعاد سقط ذاك اليراع الذي عبر عن آلام وآمال العرب من المحيط إلى الخليج...
وتوقف في الثالث من شهر أيلول قلب «نبيل» عن النبض ويداه عن الحراك والدم في عروقه عن الجريان...
إن خطبنا بوفاة صحفينا نبيل لفادح وعظيم...
وإن مصابنا بفقدانه لجلل عميق...
فلقد امتدت يد المنون لتغدر بنا ولتخطف منا صحفيا نبيلا...غافلتنا رحى الدهر ودارت علينا فسرقت منا أديبا كبيرا...هبت علينا رياح الموت واقتلعت من وسطنا علماً لوثرياً عربياً أصيلاً.

ولد الفقيد عام ألف وتسعمائة وأربعة وثلاثين في مدينة القدس، وكان أبوه المرحوم الياس شحادة الخوري معلماً في دار الأيتام السورية، أو بما كان يعرف بمدرسة شنلر، إلا أن العائلة سرعان ما نزحت من القدس إلى بيت ساحور حيث تسلم والده أولاً إدارة المدرسة اللوثرية هناك، ومن ثم رعاية هذه الكنيسة في بيت لحم.

وشب نبيل في مدينة بيت ساحور ودرس في المدرسة اللوثرية هناك لينتقل بعدها إلى مدرسة صهيون، فكلية الأمة ليتخرج أخيراً في مدرسة الفرندز.

وقد عرف عن الفقيد حبه للمطالعة،
لقد آمن ومنذ نعومة أظفاره أن خير جليس في الزمان كتاب...
لذلك كثيراً ما كان يتسلل إلى مكتبة والده لينهل من معينها علماً ومعرفة وثراء...

---

* عظة ألقيت في جنازة المرحوم نبيل خوري بتاريخ ٢٠/١٠/٢٠٠٢.

ومن كثرة حبه للكتاب قرر أن يمتهن الصحافة ...فدرسها في مصر أولا ثم انتقل إلى لبنان حيث بدأ رحلته مع الكتابة: وقد عرف الفقيد بغزارة عطائه وبفيض كتاباته... فلقد كتب إبان حياته الصحفية ما يزيد عن ٢٠ ألف مقال...
ونشر ١٧ كتابا ناهيك عن آلاف التعليقات الإذاعية المكتوبة والمذاعة.

ترك المرحوم بصماته في الحياة الثقافية والفكرية العربية...
فلقد عين في أواخر الخمسينيات مديرا لبرامج الإذاعة اللبنانية فكان أصغر مدير في العمر يعيّن في مثل هذا المنصب في تاريخ الدولة اللبنانية... بل كان هو المسؤول الرئيس عن تطور الإذاعة اللبنانية من دكان صغير قابع في السراي تحت مجلس الوزراء إلى إذاعة كبرى تذيع بخمس لغات وتبث بلا انقطاع.

وفي الستينات أسس المرحوم مجلة الحسناء وتولى رئاسة تحريرها... ثم رئس تحرير مجلة الحوادث اللبنانية ليؤسس من بعدها مجلة المستقبل والتي اشتراها منه رفيق الحريري عام ثمانية وثمانين ليسمى على اسمها تلفزيون المستقبل.

وقد عمل نبيل في كل مجالات الإعلام سواء أكانت أسبوعية «كالصياد والأنوار» أو نسائية كالحسناء والشبكة، أو جرائد يومية «كالنهار والأهرام والقدس، أو في الإذاعة كإذاعة الشرق.
وحتى عندما راح التلفاز والأنترنت يزاحم الكلمة المكتوبة كتب المرحوم:
«عليك أن تستمر... وأن تقاوم... وأن تكتب... لأنك أنت وحدك ككاتب ستبقى، لأن ما سيبقى على رغم «عصر العكس» الذي يغرق العالم هو الكلمة المكتوبة» (المرافئ ص ١٦١).

إبان حياته عرف المرحوم الكثير من أدباء ورؤساء العالم العربي
كما لم يعرفهم أحد غيره...
فلقد انتدبته الجامعة العربية في مطلع السبعينيات مع زميله بطرس غالي لشرح القضية الفلسطينية إلى الصحافة الغربية، كما وصادق المرحوم الأديب الفلسطيني الكبير غسان كنفاني وساعده على الحصول على الجنسية اللبنانية.

وكان صديقا حميما للشاعر محمود درويش حيث كانا يلتقيان أسبوعيا في مطعم ميساك الأرضي في باريس، بل كان نبيل هو من اختار لمحمود درويش عنوان مجلده الثالث: «لماذا تركت الحصان وحيداً..»

وقد كتب عنه الشاعر نزار قباني قائلا إن نبيل إنسان كامل الأوصاف...وما من زيارة لمصر إلا والتقى بزميله مصطفى أمين. كان المرحوم نبيل عربي الإنتماء بكل ما للكلمة من معنى... وقد انعكس ذلك على علاقاته...

فلقد صادق الرئيس رفيق الحريري... والأمير سلمان بن عبد العزيز، أمير الرياض... وحظى من الرئيس حافظ الأسد بعدد من المقابلات كما لم يحظ بها أحد غيره... لم تكن العروبة أيدولوجية تبناها الفقيد، إذ لم يكن يوماً قومياً بالمعنى الحزبي، بل كان عربي القلب والوجدان... حمل معه هموم الوطن من محيطه إلى خليجه... فأحب القدس بنفس القدر الذي أحب به بيروت... في زمن خيل للمرء فيه أنه قد كُتب للفلسطينيين واللبنانيين أن يبقوا على عداء، أما نبيل فلم يجد في هذا نوعاً من الشرك بل رأى في الاثنين واحدا.

آمن بالعروبة فكان فلسطينياً كما كان لبنانياً، وكان مصرياً وسورياً ومغربياً على حد سواء لا يفرق بين أحد منهم.

من يتتبع رحلة الراحل الأدبية، لا بد وأن يكتشف في حياته محطتين مميزتين... المحطة الأولى كانت حرب الأيام الستة التي عاشها الأديب الراحل في بيت عائلته هنا في بيت لحم، عن محطته هذه كتب لاحقا:
«في تمام الساعة الثانية والدقيقة الخامسة من بعد ظهر يوم السابع من عام ١٩٦٧ تناثرت أفكار طفولتي مرة واحدة. وكان الذي حطمها صوت قنبلة طائرة!!
كنت أتناول طعام الغداء في منزلنا عندما سمعت صوت طائرة تقترب..أعقبه صفير..ثم دوي هائل «أين منه صوت الرعد»، وأين منه أي صوت سمعته أو تخيلته في حياتي!
وقبل أن استفيق... دوت صوت قنبلة أخرى... وثالثة ورابعة وبحركة لا شعورية كنت أبحث مع بقية أفراد العائلة عن ملجأ داخل المنزل... وبطريقة تدعو إلى الضحك والرثاء معا كنا جميعا نلجأ إلى مائدة الطعام لنختبئ تحتها...
وزحفنا... ثم وجدنا أنفسنا بعد دقائق نعتاد على الرؤية (الصوت والصورة) فنقف، ثم نتفرج، ثم نمد رأسينا ، ثم ...يشعل واحدنا سيجارته بهدوء!
في اليوم التالي كنا نقف على سطح المنزل لنراقب الطائرة وكأننا نشاهد فيلما سينمائيا!!
هل أصبحنا فجأة أبطالا؟ لا
لكن الذي حدث هو أننا قد تعودنا على الحرب،
وأصبحت جزءأ من حياتنا في تلك الفترة القصيرة.»

أما المحطة الثانية في حياة المرحوم نبيل فقد كانت بلا شك أوسلو:
وليس سراً القول أن نبيل عارض أوسلو من يومها الأول وحتى وفاته... ولم تكن معارضته لأوسلو معارضة سياسية بقدر ما كانت وجودية...
فلقد شعر المرحوم خاصة بعد عملية القلب المفتوح التي أجريت له شعر أن خريف العمر قد أضحى على الأبواب... وأن أوراق الشتاء قد تلونت وأوشكت أن تسقط عن الأشجار...وأن آخر النهار قد حان لا محال...

وكلما تقدم العمر بالراحل زاد حنينه إلى المرافئ القديمة وشعر بأن أوسلو قد أجلت قطار العودة إلى الوطن السليب، وكأنه أدرك بحسه الثاقب أن الوقت قد فاته فلن يحظى باللحاق بركب العودة قبل الرحيل فاختار أن يموت في المهجر واقفا كالأشجار.

قلما تحدث الراحل عن انتمائه الديني، وقلما كتب عن إيمانه الشخصي ولكنك إن بحثت وجدت في طياته وخلف الصحفي العربي الكبير ابن القس الذي أعجب بوالده فأراد أن يكون مثله خطيباً لكن لا عن منبر الكنيسة الصغير، بل أراد أن يكون خطيب الأمة من المحيط إلى الخليج.

بقي عملاق الصحافة العربية إنسانا متواضعاً...
اعترف أن عبقريته ما هي إلا نعمة من لدن الله...
«الشكل أو الأسلوب هو أولاً هبة من الله، فإما أن تملكه أو لا تملكه...
تنميه وتطوره ومع الزمن يزداد تألقاً...ولكنه في الأصل والأساس... موهبة.
من لم يهبه الله، سبحانه وتعالى، هذه الموهبة فليبحث عن مهنة أخرى»
(المرافئ ص ١٤).

لم يكن المرحوم كثير التردد على الكنيسة، ولكنه كان في اللحظات الحاسمة لا يرتاح إلا بعد أن يسكب صلواته أمام عرش الله:
«ها أنا قلق حزين، خائف وحدي في ليل باريس، يفصلني عن محمود درويش رفيق الغربة والوحدة، دقائق بالسيارة حيث يقضي الليل في المستشفى في انتظار أن تجرى له جراحة عاجلة فجر اليوم التالي...
أتذكر وأصلي..
أتذكر، أنني ذات ليلة من ليالي باريس قبل ثمانية أعوام كنت مثله في مستشفى في هذا البلد البعيد الغريب عن الوطن والأصدقاء معا، أنتظر الفجر حيث ستجرى لي عملية مماثلة...

وأصلي، كي يخرج محمود من المستشفى معافى كما خرجت، مقبلاً على الدنيا كما أقبلت مولودا من جديد كما كنت ولا أزال أؤكد لنفسي.»
(المرافئ ص ٧٢ - ٧٣).

أجل في اللحظات الحاسمة كان نبيل يلجأ إلى الصلاة، بل ويؤم الناس للصلاة. ولكن أجمل ما كتب نبيل عن علاقة الله بالإنسان هي كلماته في روايته "راقصة على الزجاج" فهناك وهناك فقط يدرك القارئ مقدار الحب الذي حمله الراحل للعبادة الأحدية، تلك العبادة التي اختبرها داخل أسوار هذه الكنيسة...هناك وهناك فقط يدرك القارئ أن نبيل قد فهم سر الفداء وأن الله محبة.

في هذه الرواية يصور الراحل لقاء حميماً بين بطلي الرواية فيكتب على لسان المحبوبة:
«كانت الموسيقى التي رقصنا على أنغامها، كأنها موسيقى أرغن في كنيسة... وكان حديثنا أثناء الرقص همسا كأنه الصلاة...وكان رأسي يستند إلى كتفه وكأنني أريحه إلى صدر إله رحوم...ثم انطلق يعزف ألحاناً... كأنها تسابيح الملائكة». (راقصة ص ١٣١- ١٣٢).

فيا أبا النبل... إذ أتت ساعة الوداع إنما نستودعك رحمة الله...
إذ لن تدخل عالماً مجهولاً لديك...بل أراك وبعد عناء شديد وكأنك قد خلدت إلى الراحة على صدر ذلك الإله الرحيم..

يا أبا النبل... في ساعة الصلاة هذه نشكر الله على تلك الموهبة العظيمة التي سلمك إياها الخالق، فحافظت عليها وتاجرت بها فربحت قلوب الملايين...

يا أبا النبل، ونحن نودعك إنما نفعل هذا مؤمنين بأن المسيح بقيامته قد حول اللحد المظلم إلى مهد للخلود والحياة...وأنه حول القبر المعتم المنتن إلى سماء تضيئها تسابيح الملائكة...
لقد رسمت في روايتك صورة للجنة تفوح منها رائحة حب إله كبير وعظيم...
والآن قد أتت الساعة كي تدخل قلب الله وتتذوق محبة ذلك الفادي الكريم...
ولكن ذكراك ومحبتك ستبقى حية في قلوبنا أجمعين.

للفقيد الرحمة ولكم من بعده طول البقاء.

آمين

فارس ترجلّ

يوحنا ٤: ١٣+١٤

أيها الأحباء في الرب،

أربعون يوما مضت منذ أن ترجل الفارس عن فرسه
ليمضي فيٍ طريقه وحيداً...
أربعون يوماً مرت مذ ترك المرحوم عائلته وأصدقاءه
دون رفيق ولا سمير...
أربعون يوماً ولت مذ فقدنا فقيدنا وفُجعنا بموت عزيزنا
افتقدناه، وفي الليلة الظلماء يفتقد البدر...

أجل أيها الأحباء،
إن خطبنا بوفاة عزيزنا أبي سامر لفادح وجسيم...
وإن مصابنا بفقدانه لجلل وعميق...
فلقد امتدت يد المنون وغدرت به فخطفت منا أبا رؤوفاً...
غافلتنا رحى الدهر ودارت علينا فسرقت أخاً عطوفاً...
هبت علينا رياح الموت فاقتلعت من بستاننا سنديانة
وعلماً لوثرياً أصيلاً...

أتينا اليوم لنحي ذكرى الفقيد الراحل...
لم نأت لنتحسر على أيام خلت أو ذكريات عصفت...
ولم نأت لننتحب كما ناحت في القديم النسوة أمام القبر المغلق...
بل قدمنا اليوم لنحيي ذكرى عطرة لنحيها بالشكر بالإيمان وبالرجاء...

أجل أيها الأحباء... لم نأت لنبكي بل لنشكر...
وهناك الكثير الكثير مما يستوجب الشكر والعرفان...
ونحن نتأمل في حياة الراحل لا يسعنا إلا أن نشكر الله على حياته وعطائه

---

* عظة ألقيت في جنازة المرحوم سمير خوري بتاريخ ٢٢/ ٢/ ٢٠٠٤.

فلقد أتاح الباري الفرصة لينهل الفقيد العلم من أصفى ينابيعه
فدرس في أشهَرِ مدارس فلسطين حينها، في مدرسة الفريندر والمطران...
ولقد أنعم الرازق على فقيدنا بالكثير من النجاح
سواء أكان ذلك في مجال السياحة أو المطاعم...
أجل تذوق المرحوم طعم النجاح في السبعينيات في زمن
كان النجاح فيها صعب المنال...
ولا أبالغ إن قلت أن الله العزيز كان قد منّ على الفقيد
بعزّ لم يحظ به سوى القليل القليل...
إذ نزل في أفخر الفنادق... وركب أفخر السيارات...
ولبس أشهر الماركات...

أجل دخل الفقيد العالم من أوسع أبوابه ورأى الحياة تبتسم له
وكم مرت ولم تبتسم لغيره...وعلى هذا وجب الشكر لله...
والأهم من هذا كله أن الله منّ على الفقيد بأبناء
وبنات لم يبخل يوما في تربيتهم... وأرادهم أن ينهلوا
العلم ما استطاعوا إليه سبيلا...
أجل، أتينا هنا لا لنبكي... بل لنشكر...
فلقد أَعطى الفقيد ما أُعطي... أعطى القريب والبعيد...
أعطى كيلا فائضا مهزوزاً... أعطى ولم يبخل يوماص على أحد...
على هذه كلها نشكر الله...

ثانيا:
لم نأت هنا لنتحسر بل أتينا كي نقبل هذا الحدث الجلل بالإيمان...
أحياناً كثيرة وبعد وفاة عزيز أو صديق أو قريب
قد يقول الإنسان في نفسه آه لو فعلنا كذا...
آه لو لم يوقفه جنود الاحتلال على الحاجز زهاء الساعتين...
وآه لو استطاع الأطباء تشخيص مرضه قبل فوات الأوان...
ويا ريت ياريت...
ولكن كلمة يا ريت عمرها ما كانت ترجع ميتاً...
لم يرحل الفقيد قبل موعده... كما لم يتأخر عن يوم سفره
بل غادرنا في الوقت المحدد له وفي الميعاد...
فالكتاب المقدس يقول إن حياة الإنسان هي سبعون سنة...
وإن كانت مع القوة فثمانون سنة...

وقد عاش الفقيد سنيّ عمره السبعين بكل عنفوان وقوة ونشاط ولكن وفي السنين الثلاث الأخيرة اكتشف أن أعظم سنيّ الإنسان لتعب وبلية.

فرأيناه - وهو الذي أحب الحياة - قد راح يخافها...
ونظرنا إلى ذاك الذي تعوّد أن يسير الهوينى... نظرناه وقد راح يعتكف في البيت وحيدا...
في سنيّه الأخيرة وبعد أن خاض المرحوم غمار الحياة وغاص إلى أعماقِ أعماقها... رأيناه يكتشف جوهرها... ويدرك أننا تراب وإلى التراب نعود...
ورويداً رويداً راح الفقيد يحزم أمتعته...
وكأنه مسافر يستعد للرحيل... وراح الذي عشق الحياة راح يصغي إلى أصوات أجراس بعيدة تقترب منه تدعوه للرحيل...
وغادرنا الفقيد... وعاد إلى وطنه الأم...كما تعود طيور القلق إلى أوطانها في الميعاد... لم يسبق... ولم يؤخر...

بل كان هو مستعد لعناق الموت...أكثر جداً منا نحن الأحياء الذين خلّفنا وراءه... وركب قطار الموت وعلى وجهه ابتسامة عريضة وتركنا وراءه على الرصيف وقد اغرورقت أعيننا بالدموع والدماء... ولم نقدر على هذا الفراق إلا لأننا متسلحين بالإيمان...

وأخيرا لم نأت إلى هنا لنحزن كالباقين الذي لا رجاء لهم...
بل على العكس تماما أتينا لنحيا على رجاء القيامة بالحياة الأبدية..,
هناك لحظات مؤثرة في حياة أخينا الراحل لن أنساها أبدا...
كان ذلك في المستشفى الفرنسي...وبعد أن أفاق من غيبوبته...
وكانت أول كلمات تلفظ بها أنا عطشان...
وطلب الفقيد أن يشرب كولا... وكلما أعطيت له جرعة...
لم يكن يرتوي... بل يعطش أكثر...ويقول : أنا عطشان...
وكأن في هذا لمغزى لحياة الإنسان... فكل من يشرب من هذا الماء سيعطش... كل ما في هذه الحياة إنما هو كمثل مشروب الكولا... يغري بأنه يروي العطشان ولكن كلما شربنا منه ازددنا عطشنا...
كل من يشرب من هذا الماء يعطش أيضاً...
لو كانت هذه نهاية الإنسان أيها الأحباء لكنا حقاً أشقى المخلوقات... ولكن شكراً ليسوع الذي أردف قائلا:...

ولكن من يشرب من الماء الذي أعطيه أنا فلن يعطش إلى الأبد
بل الماء الذي أعطيه يصير فيه ينبوع ماء ينبع إلى حياة أبدية...
هذا هو رجاء القيامة...

صورة الفقيد على فراش الموت يهمس أنا عطشان...
لا بد أن نستبدلها اليوم بصورة أخرى...
فالفقيد قد وصل أخيراً إلى حيث النبع... نبع الماء الصافي...
هناك يجلس على صوت خرير ماء يتدفق...
لم يعد الفقيد عطشانا بل أخيراً ارتوى من ماء عليل...
الفقيد اليوم راح يهمس بكلمات أخرى...
الرب راعي فلا يعوزني شيء...
في مراع خضر يربضني...
إلى مياه الراحة يوردني...
أيضا إذا سرت في وادي ظل الموت... لا أخاف شراً... لأنك أنت معي...
لذلك وفي هذه الصلاة التذكارية لا نريد أن نحزن كالباقين
الذين لا رجاء لهم...
اليوم نحن رسل بعث وقيامة...
في عالم أصبح فيه الموت يحيط بنا من كل حدب وصوب...
اليوم نحن رسل رجاء وأمل...
في عالم راح يتخبط في يأس وتعاسة وقنوط...
اليوم نحن دعاة نور...لعالم يمر في نفق مظلم لا يُرى له نهاية...

إن إيماننا أيها الأحباء ... لراسخ أن أخانا أبا سامر...
قد انتقل من الموت إلى الحياة...
ومن النفق المظلم إلى الضياء...
ومن حيث العطش إلى ينابيع الرواء...
ومن عالم الإيمان إلى عالم العيان...

لقد غاب عنا حقا... ولكنه الآن حيث المراعي الخضر...
وحيث مياه الراحة... لقد حط أخيرا في قلب الله...
أما ذكراه فستبقى أبدا حية في قلوبنا...

آمين

مثل ما بده ربنا

أخانا السيد رولاند،
أخوتنا والدة وأبناء وأخوة وأقرباء الفقيدة،
أيتها الطائفة الحبيبة:

لمن فتحت أبواب الكنيسة اليوم؟
لمن قرعت أجراسها ولمن عزفت أناشيدها؟
ومن هذه التي أرى أمامي مستلقية راقدة؟
من هذه التي أراها قبالتي ساكنة وصامتة؟
أهي حقا تلك المرأة الفاضلة التي طالما شاركتنا الصلاة
في هذه الكنيسة؟
و ما لي أرى الترنيم اليوم وقد شحب وجهه، وهزل جسمه،
وانقطعت أنفاسه؟
أيا تراه يبكي هو الآخر على فقدان تلك الابتسامة العريضة
وعلى خسارة ذلك القلب الكبير؟

أحقاً رقدت عزيزتنا أم راين، أيها الأحباء،
أحقاً توفي ذلك القلب الذي لطالما خفق بدقات الحب والحنان،
حقاً رقدت أم راين، ولكن وإن ماتت فما زالت تتكلم،
حتى بعد رقادها، ما زالت تشهد لنا عن حب كبير وعن إيمان عميق.
لن ننسى أبدا تلك الابتسامة البريئة العريضة،
التي رافقت أم راين في حِلّها وترحالها،
في أفراحها وفي أتراحها...
لن ننسى أبدا تلك الكلمات العذبة التي كانت تجود علينا بها...
نشكر الله... كانت هذه دوما كلماتها...
كانت هذه كلماتها زمن العسر وزمن اليسر،
كانت هذه هي كلماتها في لبنان وفي فلسطين...

* عظة ألقيت في جنازة المرحومة أم راين فضول بتاريخ ١٩٩١/٥/٢١.

عاشت فقيدتنا لفترة طويلة في بحبوحة من العيش، فلم تفقد تواضعها،
ومرت في ضيقات كثيرة، فلم تخسر قناعتها... بل بقيت في
السراء وفي الضراء، متسلحة بإيمان قوي وبحب عظيم،
بقيت تلك المرأة الفاضلة التي فاق ثمنها أغلى اللآلئ.

لن ننساك يا أم راين،
لن ننسى تلك الكلمات الجميلة التي كنت تغدقين علينا بها زمن
الضيق وزمن الشدة، عندما كانت الأمور تتأزم، والظلام يشتد،
والأصوات تتعالى، كنت تنظرين إلينا نظرة ملؤها الصبر
والمحبة والإيمان وتقولين بلكنتك اللبنانية «مثل ما بدو ربنا».

إن الجزء الأكبر من أبناء البشرية يحيون وكأنهم لا يحيون،
فزمن الفقر تراهم تعساء يحلمون بالغنى،
وزمن الصحة تراهم مستهترين لا يقدرون نعمة الصحة.

ويدور دولاب الزمان على هؤلاء ويفيقون فجأة كي يكتشفوا
أن قطار العمر قد فاتهم وأن دولاب الزمان قد سبقهم.
أما فقيدتنا فلقد عاشت متمسكة بالله، متسربلة بالإيمان
لذلك لم تفقد زمن الغنى تواضعها وكرمها، بل بقيت بسيطة
كريمة راحت تعطي مما أُعطيت،
وفي زمن الشدة لم تخسر قناعتها ولا إيمانها ولم تبق تتحسر
على ما فاتها، بل سلّمت أمرها لربها.

أجل، كانت الفقيدة مؤمنة تعلمت أن تكتفي بما عندها، لأنها
كانت غنية بالله، فاستطاعت أن تحسن العيش سواء
أكان ذلك زمن العسر أم زمن اليسر، زمن الضيق أم زمن الفرج.

أدركت فقيدتنا بأن الحياة صعبة وعسيرة،
لذلك راحت تجتهد في أن تجمل هذه الحياة بالمحبة والحنان والتضحية...
لذلك كنا نرى الابتسامة البريئة العريضة تغطي وجهها دائما،
فتزيل الخوف والقلق من قلوبنا.
لم تمر لحظة في حياة الفقيدة إلا وكانت مشحونة بالرقة والرأفة،
فعندما كانت الأمور تتأزم، والأصوات تتعالى والقلوب تتقسى

كانت هي تتحرك لتقرّب القلوب المتناثرة وتطبب الجراح المثخنة
ولتشع بالمحبة حيث البغض، وبالغفران حيث الإساءة وبالوئام حيث الخصام.

أجل أدركت الفقيدة، أن الحياة قصيرة وأن لحظاتها ثمينة
فراحت تفتدي الوقت، لتملأه بالإيمان وبالمحبة وبالرجاء،
فعاشت وأبدعت ورسمت لنا لوحة جميلة عن الحياة الغنية،
الوفية والسخية. حقا لقد عاشت فقيدتنا حياة قصيرة
ولكنها كانت بالمقابل ثمينة.

اليوم، يا أم راين، اليوم إذ نقف أمام جثمانك
مذهولين وغير مصدقين، اليوم إذ نقف هنا
كالحيارى لا ندري ماذا نقول، في هذه الساعة
نتذكر كلماتك التي علمتنا إياها في حياتك...
«مثل ما بدو ربنا».

بهذه الكلمات نودعك يا أم راين،
واثقين من أننا لن نتركك وحيدة،
بل نستودعك قلب ذلك المخلص العظيم،
الذي طالما ارتويت من نبع حبه،
ونستودعك تلك المشيئة الإلهية،
التي لطالما سلمت أمرك إليها.

أقول هذا وكأنني أرى أم راين تلتفت نحوي،
فيشرق وجهها بابتسامتها المعهودة، وتفتح شفتيها لتعزينا في مصابنا
وتقول:
أنا لست وحدي في الطريق — أبي يمشي معي
يحفظني من كل ضيق — يمسح أدمعي
فهو المعزي والرفيق — في ضعفي يرثي لي
يقوني يعينني — ويبقى دوما لي.

مطران جليل

ثلاثون يوما مضت مذ رحل عنا نعيم إلى دار النعيم...
ثلاثون يوماً مرت مذ ترك المرحوم عائلته وأصدقاءه دون رفيق ولا نعيم...
ثلاثون يوماً ولّت مذ فقدنا فقيدنا وفجعنا بموت عزيزنا فافتقدناه...
إذ في الليلة الظلماء يفتقد البدر...

أجل أيها الأحباء...
إن خطبنا بوفاة مطارننا لفادح وجسيم...
وإن مصابنا بفقدانه لجلل عظيم...
فلقد امتدت يد المنون وغدرت بنا فخطفت منا أبا رؤوفاً...
غافلتنا رحى الدهر ودارت علينا فسرقت منا أخاً عطوفاً...
هبت علينا رياح الموت...
هبت علينا رياح الموت واقتلعت من بستاننا سنديانة جليلية...
وشخصية فلسطينية مرموقة... وعلماً لوثرياً أصيلاً...

إنّ منبر كنيسة الميلاد... ذلك المنبر الذي وقفت عليه الأحد تلو الآخر
مبشراً بإنجيل النعمة سيفتقدك يا نعيم...
أجراس بيت لحم التي قرعت عند دخولك وخروجك...
تبكي اليوم لوداعك يا عزيز...
أبناء هذه الرعية صغاراً وكباراً... شيباً وشباباً...
يعزّ عليهم فراقك... وسيشتاقون لسماع عظاتك...
سيتوقون للحديث معك ولرؤية محياك...

أتينا اليوم لنحيي ذكرى الفقيد الراحل...
لم نأت لنتحسر على أيام خلت أو ذكريات عصفت...
ولم نأت للنوح كما ناحت النسوة في القديم أمام القبر المظلم...
بل قدمنا لنحيي ذكرى عطرة... نحييها بالشكر وبالإيمان وبالرجاء...

* عظة ألقيت في جنازة المطران نعيم نصّار بتاريخ ٢٠٠٤/١١/٢٧.

فلن ننسى أتعابك علينا يا سيادة المطران...
فكم من أبنائنا عمدت...
وكم من شبابنا ثبّتّ...
كم من عرساننا كلّلت...
وكم من أمواتنا أبّنت ودفنت...
كم من جلسات لعمدة ولمجمع ومجلس ترأست...
وكم من رحلات للشبيبة وللعائلات نظّمت...

كثيرة هي الجمعيات الخيرية التي أسست
كمدرسة الأمل... وبيت النور وكلية الكتاب المقدس...
وكثيرة هي البيوت التي عمّرت...
كبيت الراعي وبيت أبي جبران في بيت لحم وبيت المطران في المدينة المقدسة.

لقد كنت حاضرا معنا في السراء وفي الضراء...
رافقتنا في المرض والصحة...
بكيت مع الباكين وفرحت مع الفرحين...
زرت المرضى والمتعبين... وصلّيت مع الضعفاء والتائبين...
وها أنت اليوم تتركنا وفي قلوبنا غصة وفي حناجرنا حسرة ونوح وأنين...

ولكننا لم نأت اليوم لنتحسر بل أتينا كي نكرم ذلك الرجل العظيم
ولا نريد له التكريم بعد مماته فحسب، بل وإبان حياته أيضا
فلم يكن من قبيل الصدفة أن أطلقنا في العام الأول بعد الألفية الثانية
اسم أحد أكبر القاعات عندنا على اسم مطراننا «نعيم نصار»...

ولم يكن من قبيل المجاملة أن تنشر هذه الرعية اللوثرية البيتلحمية
أولا باقة رائعة من عظات راعيها في كتاب «عظات من بيت لحم»
ومن ثم سيرة حياته تحت عنوان «أب اليتامى» والذي سنوزعه
بعد حفل التأبين إجلالا للراحل وتكريما لذكراه.

أرادت هذه الرعية أن تقدر مطرانها بعد تقاعده وهو بعد على قيد الحياة...
أردنا أن يسجل بيراعه قصة حياته... وأن يدون بقلمه تاريخ كفاحه...
أردناه أن يجمع أجمل عظاته...كي تبقى مدونة لأبنائنا ولأحفادنا...
وكي لا ننسى مسيرة عطائه السخي وحياة البذل والكرم والعطاء...

لم تكن مسيرته سهلة دون صراعات...
وكان يذكرنا دائماً أنه يوم رسامته قسيساً...
قدم له زميله وسلفه الطيب الذكر المرحوم الياس شحادة...
أمام الملا علبة من أقراص الأسبرين
تذكيراً له بأن الخدمة في الكنيسة كثيراً ما تصيب رأس الراعي بالصداع...
ولكنه قبل هذا التحدي وكرس النفس لخدمة الباري وعلى هذا نشكر الله...

أجل لم يكن طريق راعينا مفروشاً يوماً بالورود
بل كان محفوفاً بالمرض وبالأخطار...
فلقد انسلّ إلى جسده مرض عضال وهو مازال في ريعان الشباب...
ولكنه قاومه بالإيمان وبالصلاة

أجل لم تكن سنون حياته الأخيرة بلا كفاح ولا أوجاع
فرأينا ذاك الذي تعودناه يسير الهوينى...
رأيناه يمسك بيده العكاز...
وذاك الذي أحب قيادة السيارات أضحى لا يقوى إلا على الجلوس في المقعد
ليُنقل محمولا على الأكتاف...
ولكنه ورغم هذه كلها بقي يشكر الله على نعمه وعلى عطاياه...
ولا أظنها من قبيل الصدفة أن اتصل بي يوم السبت الثاني من شهر
أكتوبر وقبل أن يدخل إلى المستشفى بيوم واحد ليقول لي:
أود أن آتي غدا إلى الكنيسة لأحتفل معكم بعيد الشكر...
وكأنه أراد أن يقضي يومه الأخير مع الأحبة في ربوع الكنيسة ومع جموع المثبتين... وكأنه أحس بأجله يقترب... أراد أن يرجع إلى أحضان المدينة التي احتضنته وإلى رحاب الطائفة التي أحبته... رجع أخيراً كما ترجع طيور اللقلق إلى أوطانها في الميعاد...

يومه الأخير هنا في بيت لحم... قضاه في الصلاة...
اشترك معنا في العشاء الأقدس... كما وبقي معنا في العلية لحفل الغداء...
وعندما أراد الوداع... طلب مني أن يلقي نظرة على القاعة التي تحمل اسمه
ولكن لم يكن باستطاعته نزول الأدراج. فقال وفي صوته نبرة حزن
«خلص... للمرة الجاي...» ولم نكن نعلم عندها أن هذه كانت لحظات الفراق وأنه
جاء إلى بيت لحم ليلقي عليها نظرته الأخيرة
وكأنه عزم قبل أن يتركنا أن يلقي علينا تحية الوداع.

أجل لم نأت إلى هنا لنسترسل في أحزاننا كالباقين الذين لا رجاء لهم...
بل على العكس تماماً إنما أتينا على رجاء القيامة بالحياة الأبدية...
في إحدى عظاته التي ألقاها من على منبر كنيسة الميلاد كتب الفقيد الراحل
أن المؤمنين إذ يودعوا هذا العالم إنما لسان حالهم يقول:

فرحاً فرحاً أمضي إلى المسكن المنير   بالشوق إلى المجد العظيم
شوكة الموت قد داس المسيح   ربنا ساحقاً باب الضريح
مات عني لأحيا في حماه   فرحا فرحا عيني تراه.

وكأني أراه يخاطبنا بهذه الكلمات والبسمة تعلو محياه.

أجل، لم نأت إلى هنا إلا لنشكر...
نشكر الله على إيمان المرحوم الراسخ، وعلى رجائه الأكيد.
والآن إذ أتت الساعة كي نودع الراحل على هذا الرجاء...
دعونا نقولها وبلا مقدمات... سنفتقدك ...
إذ لا ينقص عالم اليوم عظماء ولا أغنياء...
بل ما ينقصنا هو مثل هذا الإيمان...

دعونا نقولها وبلا مواربات...
سنحن لذلك الصوت الدافئ... الذي كان يجلجل من على
المنبر بالوعظ، بالصلاة وبالإرشاد...
الآن نقولها وبلا مجاملات...
سنشتاق للجلوس مع ذلك الراعي...
ساعة الظهر في بيته... أو قبل الغروب مع الأصدقاء...
ولكن إيماننا أيها الأحباء ، أن مطراننا الراحل
قد انتقل من الموت إلى الحياة
ومن النفق المظلم إلى الضياء
ومن عالم الإيمان إلى عالم العيان...
لقد غاب عنا راعينا... ولكنه الآن حيث المراعي الخضر...
وفي رحاب راعينا المسيح...
لقد حط رحاله أخيرا في قلب الله...
ولكن ذكراه العطرة ستبقى حية في قلوبنا أجمعين.

آمين

من معالم بيت لحم

أيها الأحباء أسامة، هاني، سمير،
هالة، حياة، وليلى،
شقيق الفقيد وأنسباءه،
أيها الأحباء في الرب،

يغيب اليوم عنا أخ عزيز، وأب حبيب وابن شنلري أصيل...
بل لا أبالغ إن قلت أننا نفقد اليوم بموته معلماً من معالم بيت ساحور بل ومنطقة بيت لحم برمتها...
فأبو أسامة ذلك الإنسان ذو العود الرفيع،
أبو أسامة ذلك الإنسان المعدم الفقير،
أبو أسامة ذلك الإنسان العزيز،
كان معلماً مميزاً على شوارع مدننا...
فمن منا شيباً أكان أم شباباً لا يعرف أبا أسامة...
من منّا لم يره يجوب شوارع المدينة وأزقتها، حاملاً على كتفيه دزينة من عصي المقشات ، بينما تتحسس يداه الطريق أمامه كي لا يصطدم بحجر رجله...
مَن من الكبار لم يشتر يوماً مقشة من أخينا عفيف؟

من منا لم يره في سهل بيت جالا، أو أزقة بيت ساحور، أو على شارع المدبسة متجولاً يبيع بضاعته... لم يكن الفقيد من أولئك الذين راحوا يرفعون الصوت كالباعة المتجولين، بل كان يسير بصمت لا يسمع له صوت، ولايحدث ضجيجاً، بل يسير ولايتوقف إلا إذا نادته إمرأة أو أوقفه رجل يريد الشراء من بضاعته...
أجل يغيب اليوم عنا معْلم من معالم هذا البلد، معلم أعطى صفة مميزة لشوارع منطقتنا طوال قرن إلا نيف... فلقد ولد الفقيد في مدينة بيت ساحور قبل الحرب العالمية الأولى بسنتين، في عصر كانت الأمراض ما زالت تقتل آلافاً من أبناء شعبنا، والجوع والفقر سمة من سمات مجتمعنا...
وخسر الفقيد نظره في صغره...

* عظة ألقيت في جنازة المرحوم عفيف حنونة بتاريخ ٢٠٠٩/٦/٢٦.

ومن ثم أدخل إلى أحد الأديرة كي تعتني الراهبات به، ولكن الحياة في الدير لم تكن تعجبه، فتركه... وذهب من هناك إلى مدرسة الأيتام السورية، أو ما كان يعرف بمدرسة شنلر.. حيثا انضم هناك إلى قسم المكفوفين وتعلم مهنة صناعة المقشات وكراسي القش حيث اتقنها واعتاش منها واعتاد عليها .
أعجبني في الفقيد أمور ثلاثة:

١. آمن الفقيد بأهمية العمل للإنسان أياً كان وضعه المادي أو الجسدي أو النفسي... وآمن أنه بعرق جبينك تأكل خبزك... كان بإمكان الفقيد أن يجوب الشوارع يستجدي حسنة من الناس المحسنين، أو كان بإمكانه أن يجلس يستجدي صدقة، شفقة بحاله، ولكنه رفض الاستجداء، أو طلب المعونة... والحق يقال: إنه وطوال العشرين سنة الماضية لم أره يوماً يأتي يطرق الباب ويسأل صدقة... مع أن الكثيرين غيره من المبصرين، والأحسن حالاً كانوا يأتون ويطلبون مساعدة... أبو أسامة لم يطلب يوماً مساعدة من أحد حتى من أقرب المقربين إليه... كانت له عزة نفس وأباء لم أرها عند الكثيرين...لم تكن مهنة عفيف بالسهلة... ففي الشتاء القارص كنت ترى أبا أسامة يجوب الشوارع يبيع البضاعة، وفي الصيف الحار وتحت أشعة الشمس الحارقة كنت تراه يصعد الجبال علّ وعسى أن يجد من يشتري منه مقشة ببضعة شواقل... أجل ، آمن الفقيد أن الحياة ممكنة حتى مع الإعاقة، وأن العيش بكرامة هي الأفضل للإنسان في كل الأحوال.

٢. أعجبني في الفقيد حبه للعلم... أذكر أنني سألته يوماً لماذا لم يُعجب بالحياة في الدير.. فقال: "كانوا يظنون أنني أطلب مكاناً أنزوي فيه ومن ثم آكل وأشرب وألبس وأصير عالة على المجتمع... ولكنني كنت أريد أن أتعلم مهنة، صنعة، وهذا ما وجدته عند شلنر.أجل كان الفقيد يعشق العلم... وأذكر في آخر مرة زرته قبل حوالي ٣ أشهر أنه قال لي:" كانت أمنيتي أن أعلم أبنائي، بل كنت مستعداً أن أعمل ليل نهار كي ينهلوا من العلم ما يحلو لهم... بل إنني كنت مستعداً أن أسفرهم إلى ألمانيا بشرط أن يتعلموا... أجل كان الفقيد محباً للعلم وكان مستعداً لأن يضحي بأغلى ما يملك حتى يتعلم أبناؤه فيفلحون...

٣. اعجبني في الفقيد إنتماؤه الصادق إلى الكنيسة... لا يخفي على أحد أن الكثيرين من العائلات في بيت ساحور انضمت للكنيسة اللوثرية في وقت من الأوقات... ولكن ما هي إلا سنوات حتى كان هؤلاء يعودون إلى كنيستهم...
أما أبو أسامة فلم يكن من هذا النوع... فارتباطه بالكنيسة اللوثرية لم يكن ارتباط مصلحة، ولم يكن موقفه موقفاً وصولياً، بل كان عن اقتناع وسبق

إصرار وإيمان... أذكر مثلاً عندما توفيت زوجته قبل بضعة سنوات وحاول البعض إقناعه بأن يصلي عليها في كنيسة أخرى... إلا أنه رفض... كما وأوصى قبل مماته ألا يدفن إلا في مدفن الكنيسة اللوثرية، حتى ولو كان هذا في بيت لحم... أجل كان انتماء أبي أسامة انتماءً أصيلاً لم أجد مثله عند الكثيرين...

أجل أيها الأحباء، كان رحمه الله كفيف البصر، ولكنه كان بالمقابل نير البصيرة... آمن أن الإنسان لا يأخذ من متاع الدنيا شيئاً، لذلك عاش يومه لآخرته... واستثمر وقته في الجد والعمل كيلا يحتاج لأحد، كما وتمسك بالإيمان حتى النهاية وآمن أن الإنسان موقف وأن الثبات على الإيمان إلى النهاية هي الطريق الصحيح...

إذ أتت الساعة لنودع الفقيد الراحل،
إنما نستودعه رحمة ونعمة ومحبة ذلك الإله الذي تمسك به الفقيد في حياته...
سيغادر الفقيد هذا العالم خالي اليدين، ليجد كنزاً لا يفنى ينتظره هناك...

أجل أبا أسامة، لاتخف أن تخطو الخطوة الأخيرة
فلقد جبت البلاد شرقاً وغرباً وقد أتت الساعة لتجد الراحة الأبدية...
أقول هذا وكأني أسمع الفقيد يرنم فرحاً:

وعندما أتى إلى نهاية المطاف — في رفقة الفادي الغني
ربي راعي الخراف
مادام ممسكاً يدي — إذاً فلن أخاف
وعندما أتى إلى — نهاية المطاف
سأدخل حمى أبي — سأدخل هناك
سأمشي معه في السماء — وهو يمشي معي
كما مشى معي هنا — يمشي معي أيضاً هناك
وجهاً لوجهه سأراه — وجه أبي الحبيب
في حضنه للأبد — أبقى دوماً هناك
أبقى دوماً هناك... أبقى دوماً هناك...

بهذا الرجاء الثابت نتقدم من أبناء الفقيد ومن كريماته وعائلته بعزاء القيامة للحياة الأبدية.

آمين

نصف جبيل

يوحنا ١٢ : ٢٤

هذا الأحد هو الأحد الأول في الآلام

فالأربعاء الماضية كانت أربعاء الرماد... بداية هذا الفصل في السنة الكنسية والذي يسبق عيد القيامة بأربعين يوماً... ودرب الآلام الذي يبدأ اليوم هو ما يميز المسيحية عن أكثر الأديان بل كل الأديان الأخرى... فالأديان تقول: اللّٰه تعالى... والمسيحية تقول: اللّٰه تنازل... تجسد... آخذاً صورة عبد صائراً في شبه إنسان... الأديان تقول: اللّٰه تعظّم... والمسيحية تقول: اللّٰه تعذّب... وجرب... تألم... وعلّق على الصليب وكأنه مجرم من المجرمين... ويسوع يقول: إن لم تقع حبة الحنطة في الأرض وتمت فهي تبقى وحدها، ولكن إن ماتت تأتي بثمر كثير... وهذا ما جاهر به شاعرنا محمود درويش عندما أنشد: وحبوب سنبلة تموت... ستملأ الوادي سنابل... وحبوب سنبلة تموت... ستملأ الوادي سنابل... ما أن تناهى إلى مسامعي خبر وفاة أخينا الطيب الذكر سميح مسلم إلا ولمعت في مخيلتي كلمات يسوع عن حبة الحنطة... فلقد ولد المرحوم سميح في ١٩٣٠/٧/٧ في بلده نصف جبيل... (واليوم أرى أمامي تجمعاً كبيراً لأهالي نصف جبيل لذلك سأركز الأنظار قليلاً على هذه البلده). تلك البلده الوادعة التي تشكل التوأم لمدينة سبسطية... فسبسطية كانت لما يزيد عن ألف سنة عاصمة مملكة الشمال، أما نصف جبيل فكانت تمد العاصمة بما يلزمها من زيت وزيتون، ومن تين وبرقوق... ومن قمح وحبوب... وحتى بعدما دمرت الاحتلالات المتعاقبة سبسطية العاصمة... بقيت نصف جبيل راسخة مكانها كشجر الزيتون الذي يطرز أراضيها. وهكذا بقيت حتى منتصف القرن التاسع عشر... قرية صغيرة وادعة تأكل مما تزرع وتلبس مما تنسج... هكذا كانت نصف جبيل عبارة عن مجموعة من البيوت القديمة... تعد على أصابع اليد. هكذا رآها القس الإنجيلي اللماني الأصل كريستيان فلايشر(اللحام) عندما وطن أرضها عام ١٨٦٤. ولم يكن من قبيل الصدفة أن هذا القس الألماني(من مدينة أسلينجن) في نواحي شتوتجارت بجنوبي ألمانيا... والقس صموئيل موللر الذي أسس كنيستنا الإنجيلية اللوثرية في بيت لحم... والآب يوهان لودفيك شنلر مؤسس دار الأيتام السورية... هؤلاء

* عظة ألقيت في جنازة المرحوم سميح مسلّم بتاريخ ٢٠١١/٣/١٣.

الثلاثة إنما كانوا من نفس المدرسة وطلاب لأحدى أهم الإرساليات الإنجيلية في أوروبا ألا وهي مدرسة St. Chrischona بالقرب من مدينة بازل السويسرية... أقول هذا لأؤكد أن الرابط بين قرية نصف جبيل وبيت لحم كان أقدم مما نظن أو نعتقد. وترجع إلى مئة وخمسين سنة خلت. وهناك شيء آخر ربط بين نصف جبيل وبيت لحم... إذ كان المطران صموئيل غوبات هو الذي أسس مدرستنا اللوثرية هنا في بيت لحم وهو أيضاً الذي أسس في نصف جبيل مدرستين صغيرتين واحدة للشباب وأخرى للبنات وأوكل مسؤولية إدارتها للقس فلايشر .Fleisher ويبدو أن عائلة مسلم كانت من أوائل العائلات الإنجيلية في نصف جبيل... كما كان أول مدير عربي للمدرسة الإنجيلية هناك الأستاذ داود أبو مسلم والذي تخرج من دار المعلمين في مدرسة شنلر عام ١٨٧٣. إذن ولد المرحوم سميح لعائلة إنجيلية عريقة... ولكنه كان من الرعيل الأخير الذي ولد في قرية نصف جبيل، إذ لم يكن قد تبقى في القرية سوى سبعة من الإنجيليين... أما الباقون فكانوا قد تركوها... طلباً للعلم... أو سعياً وراء العمل.. فالمدارس الإنجيلية شكلت رافعة نقلت المجتمع الفلسطيني من الزراعة إلى الصناعة والتجارة والتعليم...

فلا عجب أن يلتحق المرحوم بمدرسة المطران في القدس والتي دعيت تكريماً للمطران صموئيل غوبات الذي أسسها، وبعدها إلى المدرسة الأمة في بيت لحم خاصة بعد أن كانت عائلة شحادة الخوري النصف جبلية الأصل قد انتقلت للسكن في منطقة بيت لحم. وما أن أكمل سميح دراسته الثانوية إلا وكانت النكبة، ولكن كانت قنوات كثيرة بواسطة الاتحاد اللوثري العالمي قد فتحت إلى الولايات المتحدة. فترك المرحوم ورحل إلى الولايات المتحدة طلباً للعلم... حيث درس هندسة البترول والهندسة المدنية... وكانت أمريكا في أوج عظمتها بعد أن دمرت أوروبا نفسها في الحرب العالمية الثانية. كما كانت أمريكا في أوج موجة توسعها... لذلك كانت بحاجة إلى أيدي عاملة وعقول متعلمة خاصة تلك الناطقة بالعربية... لذلك ما أن أنهى المرحوم دراسته إلا وتلقفته الشركات الأمريكية وأرسلته إلى تنزانيا أولاً ومن ثم إلى السعودية حيث بقي هناك حتى منتصف السبعينيات. ولكنه مثله مثل يعقوب... فعندما فكر في الزواج... رجع يبحث عن رفيقة له من طين بلاده... بل ومن العائلة نفسها حيث تزوج بساميه مسلم في تشرين أول من عام ١٩٦٣، حيث رزق منها بابنين: رامي ورمزي. وبعد حرب أكتوبر عام ١٩٧٣ وبعد أزمة النفط، رجع المرحوم ليستقر في ولاية New Jersey الأمريكية... وبعد تقاعده كان يطل علينا في زيارات للأهل... وما من زيارة إلا وأتى فيها للتعبد والصلاة معنا... وقد وافته المنية في الأسبوع الماضي حيث ووري جثمانه التراب بالأمس.

إن لم تقع حبة الحنطة في الأرض وتمت فهي تبقى وحدها... ولكن إن ماتت تأتي بثمر كثير. .. تذكرت هذه الآية وأنا أتأمل في مصير نصف جبيل... إذ لم يبق فيها اليوم سوى عجوزين من دار مسلم. نصف جبيل قرية مسيحية اندثرت، أو شارفت على الاندثار... أو ربما نصف جبيل كانت حبة الحنطة التي وقعت في الأرض الطيبة و ماتت ولكن لا لتبقى وحدها بل لتأتي بثمر كثير... أجل اندثرت الكنيسة الإنجيلية في نصف جبيل... ولكنها قبل أن تندثر كانت قد ملأت العالم سنابل... منها خرج كوكبة من الرعاة الإنجيليين... منها خرجت أعداد لا بأس بها من المعلمين... منها خرج الأطباء والسياسيين... أجل... حبة حنطة تموت... ولكن لتملأ الوادي سنابل... واليوم نودع سنبلاً ولد في نصف جبيل ولكنه ملأ تنزانيا والسعودية وأمريكا سنابل... في فترة الآلام هذه دعونا نمجد ونسبح حبة الحنطة الحقيقية التي وقعت في الأرض الفلسطينية... وماتت في المدينة المقدسة خارج الأسوار... لتملأ العالم بالشرارة المسيحية... لتعطينا براً وقداسةً وشهادة. أجل حبوب سنبلة تموت... ستملأ الوادي سنابل... فللفقيد الرحمة ولعائلة مسلم ومعلم وخضر وأنسبائهم وأقربائهم طول العزاء.

آمين

نقاء البصيرة

أختنا السيدة كلير،
أخوتنا أقرباء الفقيد وأنسباءه،
أيتها الطائفة الحبيبة!

لمن فتحت أبواب الكنيسة اليوم؟
لمن قرعت أجراسها ولمن عزفت أناشيدها؟
ومن ذا الذي أرى أمامي مستلقياً راقداً؟
من ذا الذي أرى قبالتي ساكناً صامتاً؟

أهو حقا ذلك الإنسان العظيم الذي لطالما هز جدران
هذه الكنيسة بصوته العذب الرخيم؟
ومالي أرى الترنيم اليوم. وقد شحب وجهه وهزل
جسمه وانقطعت أنفاسه؟
أيبكي هو الآخر على فقدان ذلك الصوت الجميل؟

أجل أيها الأحباء، رقد عزيزنا أبو إيليا...
ولكنه وإن مات لم يزل يتكلم!
وإن صمت فحياته ما زالت تتكلم،
حتى بعد موته فهو ما زال يشهد لنا
عن حب كبير وعن إيمان عميق.

حقا لم يتمكن النور من أن يتسلل إلى عينيه
ولكن يكفيك ذلك النور الساطع الذي كان يسطع من عينيه،
يكفيك ذلك الضوء اللامع الدافئ الذي كان يشع من قلبه.
كثيرون هم المبصرون في هذا العالم ولكن ما أقل أولائك
الذين يبصرون بقلوبهم ويشعرون بإيمانهم.
كان رحمه الله من أولائك القلائل.

* عظة ألقيت في جنازة المرحوم سالم هنديلة (أبو إيليا) بتاريخ ١٩٨٨/٢/١٠.

عرفت أبا إيليا وكنت وقتئذ في العاشرة من عمري.
كان موعدنا صباح كل أحد في العاشرة إلا عشر دقائق أمام
بوابة الكنيسة السفلى. كان رحمه الله دقيقاً في مواعيده, لا أذكر
أنه أخلف يوما موعدا. بل كان يواظب على الحضور إلى الكنيسة,
و الخدمة الأحدية سيّان عنده الفصل أصيفا كان أم شتاء,
وسواء أكان عنده الجو حارا أم باردا.

كنت ألقاه هناك فأمسك بيده وأقوده عبر سلالم الكنيسة
لإجلسه في مقعده المفضل في الزاوية اليسرى من هذه الكنيسة.
كنت أظن طوال الوقت أنني أنا الذي كنت أقوده,
ولم أحسب يوما أنه هو الذي كان يقودني. حقا لقد كنت أصعده
السلالم الحجرية ولكنه كان بالمقابل يصعدني سلالم روحية
إذ تعلمت منه أشياء كثيرة. علمني ومن دون أن أدري أن
أواظب على الكنيسة, علمني أن أحب الكنيسة وان أخدم الكنيسة.
حقاً لقد كان رحمه الله كفيف البصر, ولكنه كان بالمقابل بعيد النظر.
عاش في الدنيا لآخرته.

مضت الأيام, ومرت الأعوام وأنا وأبو إيليا على موعدنا صباح كل أحد.
ولكن وفجأة انقطع أبو إيليا عن الحضور. عجبت وأدركت أنه
لا بد أن يكون هناك سببا وراء غيابه. وصعقت إذ علمت
انه أصيب بفالج ألزمه السرير.
وعندها صرخت! إلهي, ألا يكفي أنه كفيف البصر, أيصبح أيضاً
طريح الفراش؟ وهل لديه القوة الكافية لتجربته كما جربت عبدك أيوب؟

وانتابني شعور بالخوف على أبا إيليا: تساءلت:
هل سيبصر يا ترى, كما أبصر من قبله أيوب؟
هل سيبقى متمسكا بدقة إيمانه رغم العواطف والأمواج الشديدة
التي كانت تضرب سفينته؟

وكم من الأشخاص ضلوا طريقهم بسبب مرض أصابهم؟
كم من الأشخاص فقدوا رجاءهم بسبب مكروه إعتراهم؟
كم من الأشخاص أستسلموا لليأس والقنوط ولم يصبهم
عُشر ما أصاب أبو إيليا؟

فظللت أتردد بيت فقيدنا ولكنني لم أسمعه مرة
يتذمر من وضعه أو يتأفف من مرضه، لم أره يوما مستسلما لقدره.
بل بقي رغم ألمه ورغم مرضه ثابت العزم، عميق الإيمان، قوي الرجاء،
بقي أبو إيليا مطمئن القلب لأن يدا علوية كانت تمسك بذراعه،
وكأن لسان حاله يكشف ذلك السر من وراء قوته إذ يقول:

أنا لست وحدي في الطريق أبي يمشي معي
يحفظني من كل ضيق يمسح أدمعي
فهو المعزي والرفيق في ضعفي يرثي لي
يقويني يعينني ويبقى دوما لي

أنا لست وحدي في الطريق أبي يمشي معي
لن أرهب ولن أضيق برغم أدمعي
لن أمشي وحدي في الطريق لن أخطو أو أسير
إلا وهو يمشي معي وهو يمشي معي.

أجل أيها الأحباء، كان رحمه الله يملك زادا خفيا
أبقاه غنيا حتى في كبره.
قلت: كان أبو إيليا كفيف البصر ولكنه كان بعيد النظر.
فمنذ صغره ومنذ أن كان طالبا في مدرسة دار الأيتام السورية في القدس
كان جادا يجمع لنفسه كنوزا لا تفنى.
لم يجمع الأموال الطائلة إذ علم أنها فانية
ولكنه جد في حفظ آيات الكتاب المقدس وجمعها.
وكأنه ببعد نظره قد أدرك أنه ستأتي الساعة من الساعات
لن تفيده فيها أموال ولن تعزيه، وكانه أدرك أنه ستاتي
ساعة لن يجد فيها من رفيق سوى كلمات مخلصه المحبوب.
هذه الكلمات التي كان أبو إيليا يرددها في قلبه،
هذه كانت السر وراء قوته.

لذلك لا تخف يا أبا إيليا، لا تخف أن تواجه الموت،
بل تقدم إلى الأمام. تقدم بخطى ثابتة.
حقا أننا لن نستطيع أن نرافقك في هذه الطريق
ولكن ذلك المخلص الذي مات من أجلك سيقودك في موتك.
وذلك المخلص الذي عشت من أجله سيحييك رغم موتك.

لا تخف، فلن تدخل عالما مجهولا لديك، بل ستعود إلى موطنك الأصلي، ستعود إلى موطنك السماوي، ذلك الوطن الذي بقيت متمسكا بالانتماء إليه طوال حياتك...
لن تدخل بيتا غريبا، بل ستدخل بيت أبيك السماوي.
إفرح، لأنه قد جاءت تلك الساعة التي طالما أنتظرتها.
ستنال الآن ما كنت تصبو وتشتاق إليه.
ستحظى برؤية مخلصك وجها لوجه.

أقول هذا وكانني أرى أبا إيليا، يلتفت نحوي فيشرق وجهه وتتحرك شفتاه فينشد:

وعندما آتي إلى	نهاية المطاف
في رفقة الفادي العظيم	ربي راعي الخراف
ما دام ممسكا يدي	إذا فلن أخاف
وعندما آتي إلى	نهاية المطاف
سأدخل حصن أبي	سأدخل هناك
سامشي معه في السما	وهو يمشي معي
كما مشى معي هنا	يمشي أيضا هناك
وجها لوجه سأراه	وجه أبي الحبيب
في حضنه إلى الأبد	أبقى دوما هناك.

وإن مات فما زال يتكلم

عبر: ١١: ٤

الأخوة السادة صليبا، وورولاند وموريس
الأخوات ليلى، نادية، أقرباء الفقيد وأنسباءه،
أيها الحفل الكريم...

لمن قرعت أجراس الكنيسة اليوم. وما لرنينها يقطر حزنا وألما؟
لما اجتمع رجالات بيت لحم الآن، وما بهم ممتلئين صمتاً ووجعاً،
ألعلهم أحسوا بفقدان عزيزنا، فأتوا لوداعه وأحياء ذكراه؟

إن خطبنا بفقدان أخينا أبو صليبا لفادح وعظيم،
وإن مصابنا به لجلل وعميق...
فلقد امتدت يد المنون وغدرت بنا فخطفت منا أبا جليلاً...
غافلتنا رحى الدهر ودارت علينا فسرقت منا ذخرا ثمينًا...
هبت علينا رياح الموت فاقتلعت من وسطنا علماً لوثرياً أصيلاً...

أجل رقد عزيزنا أبو صليبا. ولكنه وإن مات فلم يزل يتكلم،
وإن صمت لسانه، فسيرته ما زالت ناطقة بليغة حتى بعد وفاته،
ما زالت حياته معبرة شاهدة،
ولد الفقيد سنة ١٩٢٠ في مدينة القدس، ومن ثم درس في مدرسة شنلر في القدس (دار الأيتام السورية).
وفي مدرسة شنلر رضع الفقيد الإيمان زاداً،
وتسلح بالمهنة ترساً، وتزيّن بالمبادئ الإنجيلية تاجاً مرصعاً...
أجل رضع الفقيد الإيمان زاداً فتثبت عند الأب شنلر سنة ١٩٣٢ لينضم إلى صفوف الكنيسة اللوثرية،
هناك تعلم أن الإيمان مواظبة ومسؤولية، فبقي طوال حياته يواظب على الكنيسة الأحد تلو الآخر، لا يرهبه حر ولا يثنيه برد.

---

* عظة ألقيت في جنازة المرحوم أبو صليبا (عوض فضول) بتاريخ ٢٥/ ٩/ ١٩٩٤.

وأدرك أن الإيمان انخراط في العمل من أجل الكنيسة،
فسرعان ما انضم إلى عمدة كنيسة الميلاد، وخدم من موقع
المسؤولية سنين عديدة، بل وكان رحمه الله عضواً
في مجمع الكنيسة وجهازها التشريعي.
لم يكن الفقيد ينظر إلى الانخراط في العمل الكنسي
كمنصب وكرسي عليه أن يتبوأه، بل نظر إليه كوسيلة للخدمة،
لخدمة الكنيسة والعناية بأفرادها...
لذلك كنت تراه دائم الحركة، يعمل بلا كلل ويخدم بلا ملل
عند الممات وفي الجنازات كنت تراه زنبرك الحركة،
ينظم الصفوف، ويجند المتطوعين، ويرابط عند المحزونين...
وفي الأفراح كنت تراه بابتسامة العريضة يضفي
على الحفل أجواءً من الفرح والسرور.
وفي الأعياد كنت تراه يركض يزور العائلة تلو الأخرى
فيبتدئ بالشيوخ والأرامل والمحتاجين.

تسلح الفقيد بالمهنة ترساً، فبعد أن تخرج من قسم
الحدادة من دار الأيتام السورية سنة ١٩٣٦،
راح يعلم في مركز التدريب المهني في قلنديا،
حيث قضى هناك ٢٩ سنة خرّج فيها أجيالاً وأجيالاً...
بل وأبدع في مهنته فكان أول من ركب وشغل مولدات
الكهرباء وموترات الماء في منطقتنا. وكأنه أدرك أن لا
سبيل للنهوض بالمجتمع إلا بالعمل الدؤوب وتطويع
الصناعة لبناء عالم متقدم ومتطور.
وتزين الفقيد بالمبادئ الإنجيلية تاجاً مرصعاً،
فرفض الانجرار وراء الخرافات، كما ورفض
الانصياع للتقاليد الوثنية والخزعبلات، بل تمسك بالفكر
الإنجيلي نوراً في وجه الظلام، ولبس الوعي اللوثري
ترساً يقيه من حراب الأوهام. وما زلت أذكر
ذلك اليوم قبل ما ينيف عن السنة عندما زارنا المرحوم
وزوجته وكأنه أراد أن يودع عائلته وطائفته ووطنه
الوداع الأخير، ما زلت أراه أمامي يقف في مقدمة
الكنيسة معترفاً جهارة بأنه يفتخر بانتمائه لهذه الطائفة،
وبأن عضويته في هذه الكنيسة عنت له الكثير... الكثير...

أجل رقد عزيزنا أبو صليبا. ولكنه وإن مات فلم يزل يتكلم،
تركنا أخونا في زمن أضحى فيه الإيمان سلعة مفقودة،
ودعنا في عصر صعب ووقت عصيب فافتقدناه،
إذ في الليلة الظلماء يفتقد البدر.
ولا أراها من مفارقات الصدفة أن يودعنا أخونا
في الأسبوع الأول بعد القيامة، وأن يدفن هذا
الأحد، المدعو بالأحد الجديد، وكأني أحسب
المرحوم وقد اختار هذا الأحد ليعيد إلى أذهاننا
قراءة الرسالة التي تقول: مبارك الله الذي حسب رحمته
الكثيرة ولدنا ثانية لرجاء حي، الميراث لا يفنى ولا
يتدنس ولا يضمحل، محفوظ في السموات لأجلكم...

أجل، كأني أرى أبا صليبا ينظر إلينا ويقول: تبارك الله
الذي حسب رحمته الكثيرة أعطاني أن أعيش خمسة وسبعين
عاماً مليئة بالخير والعطاء...

أجل، كأني أسمعه يخاطبنا ويردد على مسامعنا،
بأن هناك رجاء حياً بقيامة يسوع المسيح من الأموات،
فلقد جاء المسيح وبموته وبقيامته أكد لنا بأن وراء الغروب
شروق أبدي. وأن الموت ما هو إلا باب لخلود أزلي.

أجل يولد الإنسان ليموت، ولكن في المسيح يموت
الإنسان ليولد من جديد، فلقد قام المسيح
من بين الأموات وداس الموت بالموت،
ووهب الحياة للذين في القبور....

بهذا الرجاء الحي وبهذا اليقين الأكيد
تسلح المرحوم في حياته وها هو يتسلح به في مماته...
لأن الفقيد تمسك بهذا الرجاء الحي في وجه الخزعبلات،

أحب ترنيمة معينة حباً شديداً،
وكأني أراه اليوم يقف في وسطنا، مشرق الوجه،
منشداً ومردداً:

خذ بيدي وقدني	كما تشا
حتى أرى في ليلي	نور السما
يسوع سر أمامي	فاتبعك
وحيثما تسر بي	أنا معك
في الضعف قو عزمي	برحمتك
فيستريح جسمي	بنعمتك
كل اتكالي دوما	ربي عليك
أبيت مطمئنا	بين يديكا

أخوتي الأحباء، أهل الفقيد وأقرباءه وأنسباءه.
هذا هو إيماننا الإنجيلي. وهذا هو عزاؤنا المسيحي،
فعلى هذا الرجاء نستودع الفقيد رحمة الله
سائلينه أن يمنحكم جميعاً من بعده طول العمر
وأن يلهمكم الصبر والسلوان.

آمين